الفصل الخامس

جولـــــة في مصـــــر

على متن الباخرة مع خروتشوف من يالطا إلى الإسكندرية[٦٩]

بعد تناول العشاء، تفرق كل منا إلى غرفته في السفينة، وجاءني سكرتير خروتشوف وقال لي إنه يريد رؤيتي، ذهبتُ إليه في المطعم القريب من غرفته. وقال: «أريد أن أسألك عن توقعاتك من زيارتي ؟» . أجبته بأنه يريد الحصول على قرض مالي بقيمة ٢٠٠ مليون روبل . «ماذا ؟» -اندهش خروتشوف . كررتُ على مسامعه مرة ثانية : « ٢٠٠ مليون روبل لأجل الخطة الجديدة للتنمية الصناعية». قال خروتشوف شيئا ما لسكرتيره، والمترجم لم ينقل ما قاله خروتشوف، وسألته عما يدور الحديث، قال خروتشوف : «تمهل» . ثم ظهر قبطان السفينة وأدى التحية . قال له خروتشوف شيئا ما، وتوجهتُ للمترجم لكي ينقل ما يقوله، فقال لي : «يقول الرفيق إنه طالما أن طلبكم لن يتحقق، فقد أصدر أمرا للقبطان بالعودة إلى يالطا». كان خروتشوف ينظر نحوي بشكل عابس وقال : «والآن تحدث بشكل جاد، ما هي كلمتك الأخيرة ؟» .

بدأت أوضح له قائلا : «سيدي الرئيس، ليس لدي أية صلاحيات لإجراء مباحثات، فإنني أكرر فقط ما قيل لي».

يقول خروتشوف : «لقد منحناكم ما هو كافٍ لإتمام المرحلة الأولى والثانية من مشروع السد العالي وقرضا كبيرا لاستغلاله في مجال الصناعة وهو قرض كبير للغاية، فمائة مليون روبل هو مبلغ كافٍ جدا».

---

(69) **Heikal , M.Sphinx and Commissar p. 133-135.**

،تم نشر الوثائق الرسمية الخاصة بزيارة ن.س.خروتشوف لمصر في كتاب : أسوان – رمز الصداقة السوفيتية – العربية . زيارة ن.س.خروتشوف، السكرتير الأول للجنة المركزية للحزب الشيوعي للاتحاد السوفيتي، ورئيس مجلس الوزراء السوفيتي إلى أراضي الجمهورية العربية المتحدة : ٩-٢٥ مايو ١٩٦٤،موسكو ١٩٦٤ ".

قلتُ له : «سيدي الرئيس، أرجو أن تستدعي القبطان مرة ثانية».

خروتشوف : «لماذا ؟» .

أجبتـه : «لأنـني في حاجـة لواحدة من قواربـه حتى أصل إلى يالطـا، لأنني إذا رجعـتُ إلى مصر بدون ٢٠٠ مليون روبل، سـيرفض عبد الناصـر التعامل معي». – قال خروتشـوف : «حسـنًا سـنرى» . وفي اليوم التالي، كان هو اليوم الرابع في رحلتنا، اقتربت الباخرة «أرمينيا» من الشواطئ المصرية . وفي الصباح أجريت و خروتشـوف حلقة نقاش طويل، أخذ يتحدث فيها عـن الوحدة العربية . وكان يصـر علـى رأيه بـأن الوحدة الفعليـة هي وحـدة طبقة العمـال والكادحين بالعالم أجمع . لقد ارتكبتُ خطأ إذن عند الحديث في هذا الموضوع المحظور .

قلـتُ : «السـيد الرئيس، إن وحدة طبقـة العمال ليس كافيـا . فلتنظر إلى دولتكـم والصـين . سـنجد أن البروليتاريا هي التي تتربع على عرش السـلطة في كلا البلديـن وعندمـا تتشـاجر سـتجد أن القومية هي التي تقـف وراء هذا الخلاف».

يتنفس خروتشوف الصعداء قائلا : «عجبا، إن الأمور تزداد صعوبة».

قلتُ : « حسـنا سـيدي الرئيس، لقد تحدثـت عن الحرب الوطنيـة العظمي، وسيادتك من قال لي إن الحزب قد ارتبك في بداية الحرب وان الشعب هو من قاوم الصدمة الأولى وأعطى الفرصة للحزب لكـي يستجمع قواه مرة أخرى».

يجيب خروتشـوف : «أنك لم تفهـم مقصدي على النحو الصحيح، فالشـعب لا يستطيع التحرك لولا وجود تنظيم لتحركه» .

بعد ذلك أخذ خروتشـوف يتسـاءل، لماذا نقوم باعتقال الشيوعيين وكيف يتـم طـرح هـذا الموضوع أمـام عبد الناصـر . قلتُ : «لقـد تم الإفـراج عن كافة الشـيوعيين وغادروا السجون». وأخذ يطرح عدة أسئلة في موضوعات مختلفة

حول الإسلام، دور المفتي، حجم وعدد السكان بالقاهرة، ومصر وعدد من الدول العربية، هل نتحدث جميعا بلغة واحدة، ما هو دور الرابطة العربية، وما الذي حدث للسيد قاسم .... الخ .

كان من المفترض وأن نصل في صباح اليوم التالي، بعد تناول طعام الغذاء، صعدتُ إلى سطح الباخرة، أحمل معي راديو ترانزستور صغير لكي أسمع الأخبار من القاهرة . وكل موجز للأنباء كان يحمل جزء من الاستعدادات المتخذة لزيارة خروتشوف . جاءني خروتشوف وسألني عما أسمعه، قلتُ له باختصار ما اسمعه، فقال : «هناك موضوع لا أعلم في الحقيقة إذا ما كان ينبغي طرحه عليك أم لا . فإنني شخص صريح، فقد تلقيتُ خبرا يفيد بأن حكومتكم تبذل قصارى جهدها للحيلولة دون خروج المواطنين إلى الشوارع لاستقبالي».

أجبته : «سيدي الرئيس،هذا أمر بعيد كل البعد عن الحقيقة» .

يأسف خروتشوف قائلا : «لكن يبدو أنهم لا يرغبون في إجراء استقبال حافل لي».

أجبته : «هل لي أن أقول لك أمرا ما ؟» – عندما تحلل ضيفا على أي شخص من أهل الشرق، فإن طريقة استقباله لك لا تنعكس عليك، بل على صاحب المكان . فإذا ما تم استقبال الضيف بفتور، فهذا يُعد عيبا في حق المضيف وليس الضيف . والأفراد الذين أبلغوك بهذه المعلومة، لا يعلمون أي شيء عن عادات وتقاليد أهل الشرق «.

أجاب خروتشوف : «حسنًا، فلننتظر إذن». – أثناء العشاء الأخير على متن الباخرة، أخذ خروتشوف يتناول كأس كبيرة من الكونياك ثم أعقبه بكأس آخر . صاحت ابنته رادا قائلة له : « أبي هذا يكفي «يرد عليها خروتشوف : « لا، لا، هذا هو آخر كأس سأشربه، ومن الغد سأصبح مسلمًا مثل عبد الناصر». ذهب الجميع لكي يناموا مبكرين . وفي الصباح، بعد أن استيقظتُ وجدتُ

خروتشوف قد أرسل لي بمترجمه يريدني أن أذهب إليه . أسرعتُ إلى غرفته . ظل خروتشوف يحملق في وجهي وقال : «قلتُ لك بالأمس إن حكومتكم تعتزم تقليل مظاهر استقبالي». ومعي الدليل على ذلك الآن. فمن المفترض وأن يكون عامر هو من يستقبلني بالإسكندرية و عبد الناصر لا ينوي أن يأتي لاستقبالي . أنتم تتبعون ذلك البروتوكول، طالما أن عبد الناصر رئيس دولة وأنا مجرد رئيس وزراء» . أجبته : «لا يمكن أن يكون ذلك، فهذا خطأ كبير «. غير أن خروتشوف ظل مصرا على ما قيل له . وبعد مرور قليل من الوقت، وبمجرد أن دخلت الباخرة المياه الإقليمية لمصر، اقترب زورق من الباخرة وعلى متنه المشير عامر . وكان عبد الناصر في انتظاره عند المرسى .

انتهي سوء الفهم، وارتسمت الفرحة على وجه خروتشوف وسألهم عن مدى إعجابهم بتلك الرحلة، وكان هناك ثلاثة من الصحفيين على متن تلك الباخرة منهم أدجوبيا، سايتيكوف، و أنا ووصفنا بأننا «الغزاة الفاتحين ذوي الأنف الطويل».

من الصعب وصف ذلك الاستقبال الذي وجدناه عندما نزلنا إلى الشاطئ. وهناك عدة عوامل هي التي مهدت لذلك الاستقبال الباهر . فقد كان عبد الناصر في أوج حكمه، وخروتشوف يُعد شخصية أسطورية بارزة ليس فقط

في مصـر . وصلنا إلى القاهرة عبر القطار وخرجنـا من المحطة لنجد موكب من السـيارات في انتظارنا للتحرك إلى قصر القبة، الشبيه بمقر رئاسة خروتشوف. عندما وصلنا إلى القصر، سألته : «ما رأيك فيما حدث ؟» – رأيتُ الدموع تترغرغ في عينيه . حيث لم يسـبق له مشـاهدة مثل هذا الاستقبال من قبل، فقد كان هناك أفواج وطوابير من المصريين المحتشدين لرؤيته في هذا اليوم .

لدي رغبة شديدة في الذهاب إلى القاهرة [٧٠]

كان حلم الشعب المصري هو استغلال مياه نهر النيل الفتي لصالح اقتصادهم. فقد تم استغلال مياه هذا النهر منذ قرون بعيدة ولكن المقصود هنا هو استخدام موارده المائية وإجبار النيل على تشغيل التوربينات للحصول على التيار الكهربائي لسد الاحتياجات الاقتصادية للبلاد .

عندما وصل عبد الناصر إلى السلطة، باتت هذه المسألة مطلبا حيوياً وتم إجراء بعض المفاوضات والتوصل إلى اتفاق مع البنك الدولي او الوطني الأمريكي. وكان هناك وعود بمنح قروض لأجل إنشاء سد في مجرى نهر النيل . توقع المصريون أن حلمهم سيصبح حقيقة أخيراً. ونظرا لأن مصر قد خرجت من المجرى الملاحي لسياسة أمريكا، إنجلترا وفرنسا، مما أزعج القوى الإمبريالية، ففي اليوم الأول تم إعلان رفض البنك تقديم القروض التي وعد المصريين بها . الأمر الذي أثار غضب مصر ورئيسها عبد الناصر . ومن ثم أعلن عبد الناصر قرار تأميم شركة قناة السويس، الأمر الذي زاد من سخونة درجة حرارة السياسة الدولية وزيادة حجم التوتر .

وكان يتواجد بمنطقة قناة السويس طاقم خدمات وأعمال صيانة فرنسي بشكل رئيس إلى جانب عدد من البحارة والعمال . تم استدعاؤهم جميعا للعودة إلى بلادهم وأصبحت مصر بدون كوادر . اعتقد الغرب أن مصر بذلك ستفقد ثقلها لأنها لن تعد قادرة على التغلب على الصعوبات والمشاكل التي ستواجهها خاصة بعد استدعاء الخبراء والعمال، وأن القناة ستتوقف عن العمل،

(٧٠) من الأرشيف الروسي الحكومي للتاريخ المعاصر مخزن رقم ٥٢ ن.س.خروتشوف، قائمة رقم ٢، حافظة رقم ٨، السطور : ١٤-٤٩ .

الأمر الذي سيزيد من حجم المشاكل المالية والسياسية على مصر، لأنه قبل قرار التأميم كان هناك اتفاق دولي وتم إقرار نظام معين لتشغيل واستغلال قناة السويس .

توجهت الحكومة المصرية بطلب إلينا لتقديم العون والمساعدة، وها نحن الآن نقدم تلك المساعدة . حيث أرسلنا إليهم الخبراء والمهندسين في المجال البحري كي يستطيع المصريون الاستفادة من كيفية إدارة قناة السويس . غير أن القناة فاقت كل التوقعات، فهذه هي سياسة دالاس، سياسة من موقف القوة، ساعدت في تقريبنا مع مصر وكان من السهل عليها أن تعرف أصدقاءها من أعدائها . وعلى الرغم من أن صحافتنا قد نشرت بعض المقالات الانتقادية، إلا أننا كنا نقف دوما إلى جانب مصر في اللحظات الصعبة لمساندة النضال العادل للشعب المصري في مواجهة المستعمر وتعزيز استقلال هذا الشعب .

بدأت الوفود العسكري المصرية تتوافد إلينا وعلى رأسهم المشير عبد الحكيم عامر – القائد الأعلى للجيش المصري . أجرينا معهم المباحثات وقدمنا لهم المساعدة التي يحتاجوها . وفي الوقت نفسه، فقد كانوا محصنين بسلاحنا . حيث أعطيناهم زوارق طوربيد مسلحة بالصواريخ. وأعتقد أننا أعطيناهم كذلك عدد من الغواصات وابتعنا لهم زوارق للحراسة وأسلحة أخرى،هذا فضلا عن شرائهم للطائرات . واتفقنا كذلك على منحهم ترخيص صناعة طائرات « ميج – ٢١» . ويمكن أكون مخطئا في ذلك . ولكن لماذا أتحدث عن هذا الأمر الآن ؟ لأن هذا لم يكن سرا بالنسبة لنا . فقد منحنا الهند أيضا مواصفات تكنولوجيا تصنيع هذا النوع من الطائرات، وبالتالي يمكن منحها لمصر أيضا. وإذا لم نكن أعطيناها لهم، فهذا لأنهم لم يطلبوها، فهم يعتقدون أنهم لا يستطيعوا تصنيعها .

توجه المصريون باقتراح إلينا لكي نوافق على إنشاء السد العالي . رفضنا ذلك الاقتراح في البداية، واعتقد أن الرئيس تيتو قد نصحهم بالتوجه إلينا بطلب مقنع نظهر فيه النوايا الحسنة والصديقة نحوهم . فقد نصحهم بمحاولة

إقناعنا بالموافقة على بناء السد العالي. ولكن لماذا أفكر بهذا الشكل؟ فعندما كنا نلتقي مع الرفيق تيتو، كنا نتباحث ونناقش موضوعات مختلفة وكان غالبا ما يكون هناك تبادل للآراء حول مصر. كان تيتو يبدو حزينا على الوضع في مصر. وكان يمتدح جمال عبد الناصر ويبرهن على ضرورة مساعدته. وقد كان على حق في ذلك. فقد أثبتت الحياة والتاريخ مدى صحة حكمه على هذه المسألة. تجمعنا الآن مع مصر أفضل أنواع العلاقات وهذا يأتي لصالح مصر والاتحاد السوفيتي وكل القوى التقدمية.

في البداية تم طرح هذا الموضوع في ظل أحاديث متفرقة مع أعضاء سفارتنا بمصر، ثم وصل عامر. تجدر الإشارة إلى أن عامر قد أنهى حياته بصورة درامية مأساوية للغاية، فقد انتحر. لقد تكبد الجيش المصري كارثة، وعامر باعتباره القائد الأعلى لهذا الجيش، فهو المسئول عن تلك الكارثة. فهو المسئول عن وقوع تلك الكارثة. ومن الصعب بالنسبة لي أن أحكم على ما حدث. وعلى الرغم من ذلك، فقد ترك عامر لدي انطباع جيد، انطباع ذلك الرجل

المخلص والأمين لأمر الشعب المصري . فقد كان مدركا لأهمية وجود علاقات صداقة قوية بين شعوب مصر والاتحاد السوفيتي . للأسف فقد خدعتني شخصية عامر، فقد أجريتُ معه مباحثات وتعاملت معه بكل ثقة معتقدا أنه شخص نزيه ومخلص وأن الصداقة بين شعبينا ليست أمرا وقتيا وكنتُ متأكد من أن الصداقة مع الاتحاد السوفيتي تأتي لصالح الشعب المصري للنهوض باقتصاده وثقافته ورخائه . لقد ذهب عامر إلى روسيا عدة مرات، وكان دائما ما يطلب اللقاء معي وكنا نوافق على طلبه . التقيتُ معه بقرار من اللجنة المركزية، استمعتُ إليه وتحدثنا عن وجهات نظرنا . وجاء إلينا مرة أخرى واستطاع هذه المرة أن يظهر إصراره وليس إلحاحه أو تطفله . حاول أن يقنع محدثه بأن مصر عندما تكون قوية، فهذا سيصب في صالح الاتحاد السوفيتي أيضا، فالوضع الاقتصادي الحالي ضعيف في مصر ولن نستطيع النهوض به بدون بناء السد العالي . والطاقة الكهربائية في مصر ضعيفة، وعند بناء السد العالي سيزيد معدل ري الأراضي الزراعية للثلث تقريبا، مما سينتج ثروة كبيرة للدولة والشعب .

قلت له : « نحن نوافق على ذلك بالفعل، غير أن هذا يحتاج الكثير من رأس المال، وهذا ليس بمقدورنا الآن».

وعقب هذا اللقاء تبادلنا الآراء في الحكومة واللجنة المركزية للحزب حول كيفية التصرف في هذا الأمر . قمنا بتكليف رجال الاقتصاد والمعنيين بخطة الدولة لدراسة ذلك الاقتراح . وقد ظلوا يتدارسونه لوقت طويل، ثم خرجوا علينا بتقرير في النهاية يوضحون فيه تكلفة المشروع، المدة التي يستغرقها البناء . وكان هناك رأي يقول بأن هذه الصفقة من الممكن أن تعود علينا بالمنفعة السياسية والاقتصادية . ولكن لابد من فهم ما المقصود بتلك المنفعة الاقتصادية .

فهي تعني أننا نقوم بتعزيز اقتصاد صديقنا وبالتالي فإننا نعزز علاقات الصداقة معه، هذا من الناحية السياسية، فهذه الأموال ليست بخسة، بل ستعود إلينا مرة ثانية في صورة واردات . حيث بمقدور مصر أن تصدر لنا أفضل أنواع القطن، فهي تتمتع بالقطن طويل التيلة إلى جانب محاصيل مثل الأرز والسلع الأخرى . وأوضح باختصار أن هذه النقود ليست منحة ولا عطية، إنما هي قرض سيتم سداده . بالإضافة إلى ذلك فإننا سنحصل على مكسب مجاني يتمثل في كسب ثقة ليس فقط الشعب المصري، بل وشعوب الوطن العربي والدول الأخرى النامية في القارة الإفريقية، الذين سيشاهدون كيف يتصرف الاتحاد السوفيتي وكيف يمكن الاعتماد عليه وكيف انه يتعامل بدون النظر لأية مطامع إزاء احتياجات ومطالب الشعوب التي تخلصت من براثن الاستعمار والقوى الإمبريالية. وهذا يحمل لنا مغزى سياسي كبير، وهو ما يُعد أهم بكثير من المغزى الاقتصادي . ترى ما الذي يعنيه دعم مصر والشعوب العربية وتعزيز علاقات الصداقة معهم ؟ هذا يعني بالطبع إضعاف المعسكر المعادي لنا . فإذا لم نسعى لدعم العلاقات مع الشعوب التي تحررت من الاستعمار، فإن القوى الإمبريالية ستبحث عن كل صدع لكي تجذب هذه الشعوب خلفها وتعادينا بشكل أوسع وقوة أكبر . مما سيدفعنا نحن بالطبع لإنفاق المزيد على دعم جيشنا وتعزيز قدرات قواتنا المسلحة . وبالتالي سنخسر، أما إذا درسنا الموضوع بشكل أعمق فسنربح بكل تأكيد. ولهذا عندما ناقشنا الموضوع من كافة جوانبه، توصلنا إلى أنه بمقدورنا بناء السد العالي في أسوان وسيكون بمقدورنا إتمام المشروع في ظل كل تلك الاعتمادات، ونستطيع في ذلك الوقت التغلب على هذا الأمر . فقد وافقنا وأبرمنا اتفاق مع مصر لإنشاء السد العالي .

وعندما أجرينا المفاوضات، أصرت مصر على أن نلعب نحن دور المقاول وأن نلتزم بإتمام البناء في الوقت المحدد . ثم يبدأون من جانبهم الوفاء باستثمار رأس المال وتعويض نفقاتنا . سبق وأن رفضنا مثل هذا النوع من التعاون مع دول أخرى . وقد رفضنا على أساس أنه إذا ما تعاملنا في صورة مقاول، سنقوم

باستئجار العمالة المصرية وسنتعامل معهم وكأننا مديرين عليهم. وفي هذه الحالة من المؤكد أن تنجم مشاكل فيما بيننا، مثل تلك التي تظهر بين المدير والعمال. وسينظر إلينا الشعب المصري وكأننا مستغلين ولسنا أصدقاء. سنقوم من جانبنا بإنشاء سد أسوان على حساب قروضنا، أما بالنسبة لهؤلاء الذين يعملون لدينا، فإن تعاملنا معهم سيختلف، لن يكون مثل تعامل دولة ما نحة للقروض وإنما دولة تقود هذا العمل وكأنها مقاول. فنحن نقوم باستئجار القوى العاملة وندفع لهم أجرهم ومن المتوقع أن تكون هناك خلافات مع العمال وسكان مصر وهذا هو ما لا نريده، ولهذا فقد رفضنا ذلك مع كل الدول التي منحناهم القروض. وسبق وأن اتفقنا مع الهند على إنشاء مجمع للحديد والصلب لديهم وعدد من المشروعات الأخرى.

أعتقد أن هذه السياسة هي السائدة الآن لأنها السياسة الوحيدة الصحيحة والحكيمة، ولهذا فقد رفضنا وقلنا للمصريين: «أنتم تتولوا عملية البناء و نحن نتعهد بالإدارة الفنية بالكامل. حيث نتولى تجهيز المعدات والآلات وسيقوم خبراءنا بوضع أسس المشروع، ولكن لابد وأن يكون لحكومتكم دور أيضا، فأنتم من سيقوم بدراسة المشروع والتصديق عليه».

وهكذا فقد تحسنت العلاقات مع مصر خطوة بخطوة حتى إنها كادت تتحول إلى علاقات صداقة وساهم في ذلك الاتفاق على إنشاء السد العالي وقدرة القيادة المصرية على تفهم علاقات الصداقة بيننا. ولم يكن هذا المستوى من التفاهم لدى مصر وحدها، بل وكذلك لدى كل الدول التي أصبحت على طريق النضال لنيل حريتها أو تلك التي تحررت من براثن الاستعمار وأصبحت تقف على طريق هيكلة اقتصادها على أسس جديدة واقصد هنا بمفهوم «أسس جديدة» أي عدم وصولها إلى الطريق الاشتراكي.

ولكننا على يقين من أن هؤلاء الأفراد الذين تحرروا من براثن الاستعمار ونالوا استقلالهم وباتوا في طريق حياة سياسية مستقلة، سيدركون إن عاجلا أو آجلا أهمية إحراز تقدم في طريق البناء الاشتراكي. لقد أدركنا

انـه لابد مـن التحلي بالصبر وعدم فرض فكرة بناء نظام اجتماعي وسياسـي لأي مجتمـع وإتاحة الفرصة للأفراد لكي يسـيروا بأنفسـهم نحو هذا الطريق و يختارون النظام الاشـتراكي.وعندئذ سـيناضلون من أجل إنشاء هذا النظام ودعمه وتطويره .

لابد من الإشـارة إلى أن خبراءنا لديهم خبرة محنكة في مجال إنشاء المحطات المائيـة وهذه ليسـت مبالغـة، بل هي حقيقة لابـد من الاعتراف بهـا . فقد نجح خبراءنا، مهندسـينا وعلماؤنا في وقت قصير في إنشاء مشروعا لتشغيل اكبر وأضخم محطة مائية وبالفعل تم إنشاء أكبر طربين مائي . الأمر الذي أسهم في تراكم الخبرات لديهم . وبفضل تلك الخبرات والممارسـات العلمية، أصبح لدى مهندسـينا الفرصة في التوصـل إلى أفضل الحلول الفنيـة والتكنولوجية ذات الطابع العلمي للكثير من المحطات المائية .

والآن لا يمكنني القول بأنه بمقدور مهندسـي دول أخرى تنفيذ مشروع بناء السـد العالي. وعندما قام مهندسـونا بدراسـة المشـروع، وجدوا أنه من الممكن إيجاد أفضل الطرق المتقدمة والاقتصادية لإنشاء تلك المحطة المائية العملاقة .

لقد نسـيتُ تلك الاقتراحات والتوصيات التي يتموضعها في مشـروعات دول الغـرب .غـير أن هذا الأمر لا يمثل أيـة أهمية للحديث عنـه في مذكراتي الآن لأنه أمر يتعلق بالشـئون الفنية . ومن يريد الاطلاع عليه فلن يكون ذلك في مذكراتـي بالطبع، فهناك أعمـال أدبية تكتب الآن حول هـذا الموضوع، وفي المسـتقبل سيكون هناك أعمال كلاسـيكية حول أنشاء المحطات المائية . ومن المفترض وأن يجد السد العالي مكانة ضمن هذه الأعمال .

اقترحـت القيادة المصرية أن يقـوم الوفد السـوفيتي بزيارة مصر للتعرف علي الموقـع الذي سـيقوم عليه المشـروع وإقامة مزيـد من علاقـات الصداقة . كنتُ أشـغل منصبا رفيعا في ذلك الوقت، ولذلك عندمـا تحدثوا معي أخبروني بأنهم يدعونـي لتلـك الزيارة . وقـد كنتُ أرغـب بالفعل في الذهـاب إلى مصر . ولم

يكن هذا حلمي بمفردي، بل هو حلم كل شخص يريد التعرف على الشعوب الأخرى ويرى طريقة معيشتهم خاصة إذا ما كانوا مصريين . فمصر- هي مهد الحضارة الإنسانية ولهذا فهي تمثل لنا شيئا ما يتسم بالغموض والسرية وتراكم خبرة تاريخية عظيمة للبشرية بأكملها . ومثل هذه البلاد تُعد جديرة بالمشاهدة .

أدركت لماذا أراد المصريون أن أترأس بنفسي الوفد السوفيتي، فقد كنتُ أشغل المنصب المناسب، وأرادوا توثيق علاقات الصداقة بيننا لتحقيق أهدافهم المتمثلة في الحصول على مساعدة اقتصادية من جانبنا ودعم السياسة التي تنتهجها القيادة المصرية . ولهذا فقد رأوا أنه من الأفضل الاتفاق معي حول هذا الأمر .

وجهوا لنا الدعوة للزيارة لحظة وضع حجر الأساس لمشروع السد العالي، ولكني لم أستطع الذهاب في ذلك الوقت نظراً لانشغالي بمهام أخرى . فكما سبق وأن قلت من قبل إن عامر قد جاء إلينا وطرح مسألة أن نقوم بتقديم المساعدة وأن نتعهد ببناء السد العالي لمصر . وكان هناك أحاديث أخرى حول المساعدة الاقتصادية . وعندما جاء موضوع زيارتي، كنتُ أجيب بشكل مازح قائلاً : «انتم تدعونني للزيارة في الوقت الذي يقبع فيه الشيوعيون لديكم داخل السجون . وفقا لقانونكم فإن الشيوعيين ليس من حقهم الإقامة بشكل شرعي داخل البلاد . ولهذا فإن الحزب الشيوعي لديكم يعمل بصورة قانونية , و نحن نعلم أن الحزب يمارس نشاطه وعلى دراية بأفراد قيادة الحزب الشيوعي المصري ونعلم أيضاً أن معظم أفراد تلك القيادة يقبعون داخل السجن . ولهذا فإنني لا أريد أن أعرض نفسي لهذا الخطر وأكون السبب في شن حملة ضد هؤلاء الشيوعيين الذين نحترمهم وأنتم تعتقلونهم داخل السجون . بالإضافة إلى ما سبق فإنني شيوعي وأنتم تعلمون ذلك جيدا وأخشى أن يتم الزج بي داخل السجن وبالتالي أكون السبب في زيادة عدد نزلاء سجون مصر «.

ودائما ما كان ينظر عامر ويهز رأسه ضاحكا : « هذا ليس صحيح، فليس لديكم معلومات صحيحة». أخذ الكثيرون ومن بينهم القيادة المصرية في محاولة لإثبات أن الشيوعيين المصريين ليسوا مثل نظرائهم في الاتحاد السوفيتي ولهذا فقد اضطروا لفعل ذلك لإصلاح شعبهم ودولتهم. وللأسف فإنني لم أسمع تلك الحجج فقط من الجانب المصري، بل ومن قيادات دول أخرى . « أقول لا، فقد سمعنا تلك القصص من قيادات تلك الدول التي يقبع فيها الشيوعيون داخل السجون أو يعملون في تنظيمات سرية . ويفسرون عمليات قمع الشيوعيين داخل السجون بحجة أنهم ليسوا مثل نظرائهم بالاتحاد السوفيتي».

أعلم ذلك من معايشتي بالاتحاد السوفيتي، أتذكر هنا أثناء الحرب الأهلية التي اندلعت في عام ١٩٢٠، كان يتعين على التفاوض مع عدد من المثقفين في منطقة كراسنادار، وكان لابد من المساس بهم خاصة بعد عملية انتهاك حقوق البورجوازية التي قمنا بها تحت قيادة فورمانوف، والذي كان يشغل آنذاك منصب قائد الإدارة السياسية وكان يترأس هذه الحملة . فقد كان هناك بالمنزل الذي أعيش فيه مجموعة من الأفراد الطيبة . ولكن كان لديهم تصور غير صحيح عن مفهوم الاشتراكية، ثورة أكتوبر وعن الشيوعيين الذين شاركوا في الثورة وظلوا يدافعون عن مكتسباتها وكانوا يباركون لينين . وأذكر أن أحد هؤلاء السكان كان ممثلا ويقول : « نحن مع لينين، مع شيوعيي موسكو، لأن شيوعيي موسكو لأنهم ليسوا مثل شيوعي منطقة كراسنادار» ، حاولنا أن نشرح لهم الوضع وتصحيح الصورة لديهم ودخلنا في جدال ومناقشات ساخنة . ولهذا لم تكن تلك الحجة التي قدمتها القيادة المصرية لي جديدة على مسامعي .

لقد مر الوقت، والأعمال الخاصة ببناء السد العالي تسير بنجاح . وقد جرت أعمال أخرى لإنشاء المصانع والمعامل . أذكر أننا قدمنا المساعدة الفنية ومنحنا قرض لأجل إنشاء مصنع للحديد والصلب . قامت مصر بأعمال البناء بالفعل ولكننا نحن من قدم الإدارة الفنية للمشروع، ففي الحقيقة أن مهندسينا هم من أداروا أعمال بناء هذا المشروع وبذلك نكون قد زرعنا الثقة لدى القيادة المصرية ورفعنا درجة التعاطف مع قيادتنا وشعبنا ودولتنا .

لابد من القول بأن القيادة المصرية قد تعقدت بسبب الضباط والطبقة البورجوازية المتوسطة. حيث يتمتع هؤلاء الأفراد بمستوى معين سمح لهم بالحصول على التعليم العسكري. وكان من بين تلك القيادة أفراد مختلفة من حيث المستوى الاجتماعي والطبقي. وبالتالي فلم تكن تجمع تلك القيادة وحدة من نسيج اجتماعي واحد. وهذا أمر طبيعي. ولهذا كان التعامل معنا يسير بشكل مختلف من جانب تلك القيادة. وعندما تسير هذه العملية سيتم ملاحظتها من الخارج في كل دول لأنها عملية عديمة الجدوى.

انتهت الحرب الأهلية لتوها في نيجيريا، بعد أن استمرت قرابة عامين ونصف. وقد اندلعت الحرب، على الرغم من أن الدولة قد تحررت من استعمار إنجلترا لها، غير أن قيادتها المعقدة لم تكن متحدة النسيج وتعرضت لضغوط مختلفة وسعت وراء مصالح مختلفة. وكان بمصر مثل هذه القيادة المختلفة من حيث البناء الاجتماعي. واعتقد أن هذا الأمر قد انتهى الآن. حيث مر الكثير من الوقت وتم عمل انتقاء للقوى الرجعية وظهرت قوى جديدة تدعم الحكومة التي تنتهج سياسة الإصلاح الاجتماعي. في البداية كانوا يتحدثون عن الاشتراكية العربية ثم بعد ذلك صاروا يتحدثون عن الاشتراكية العلمية بحيث ينتهجون سياسة البناء على أساس علمي.

لقد أسهم مشروع بناء السد العالي في تقريبنا ليس فقط من القيادة المصرية، بل وكذلك من الشعب المصري، حيث شارك في هذا العمل الكثير من مهندسينا والكوادر العمالية البارزة وقد احتكوا وتعاملوا مع المهندسين

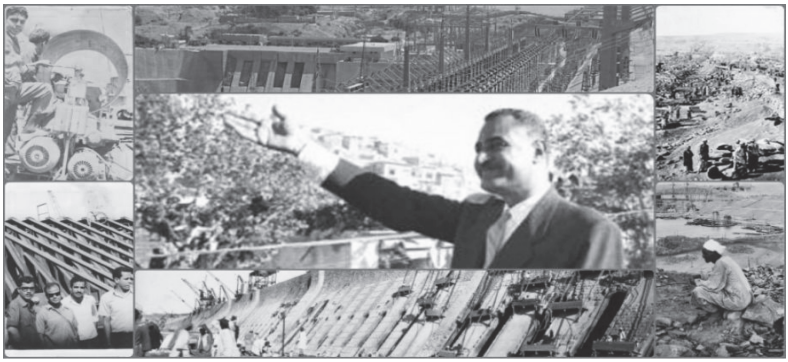

والعمال والفنيين المصريين بشكل مباشر ولصيق . وبالنسبة للعمالة المصرية فقد كانوا من الفلاحين الذين جاءوا للمشاركة في بناء السد العالي . قام مهندسونا وعمالنا بتعليمهم وعملوا معهم على نفس الماكينات، الحفارات والسيارات . مما زاد من إحداث مزيد من التقارب بين الفريقين وزيادة حجم الثقة بينهم .

أوشكت عملية بناء السد العالي على الانتهاء من المرحلة الأولى وسيتم تحويل مجرى وهذا ضمن الأسس الرئيسية لعملية البناء وبعد ذلك تأتي مرحلة تعلية السد وتركيب التوربينات المائية .

صار المصريون يصرون بشكل قوي لكي أحضر هذا العمل المهيب والعظيم لأن السد العالي بالنسبة لهم هو حلم مقدس للشعب المصري .

ولكننا أثناء المباحثات كنا نرد بشكل هزلي، ولم يكن ذلك من باب المزاح، بل للإشارة إلى السياسة غير الصحيحة التي ينتهجوها إزاء القوى الرجعية لديهم، ولهذا عندما جاءني السفير المصري بتكليف من الحكومة المصرية لتوجيه الدعوة لي، قلتُ له : « كيف يمكنني الذهاب إليكم ؟ « وأدرك غالب ما أريد أن أقوله. وهنا ازدادت الثقة فيما بيننا . لأنه عندما ظهرت في سوريا تلك القوى المعادية لفكرة الوحدة ووصلوا لحد نسف تلك الوحدة والخروج منها، ابتسم السفير غالب أثناء لقائه معي وأجاب على سؤال كيف سار الحال مع سوريا، قائلاً: «سار مثلما قلت من قبل» وكذلك عندما انطلقت

قوى نشطة تسعى نحو انسحاب سوريا من تلك الوحدة، كان عامر في سوريا في ذلك الوقت وتم التحفظ عليه هناك ووضعه تحت الإقامة الجبرية بمنزله ثم أُطلق سراحه. ولا أتذكر هنا في أي وقت تحديدا كان عامر أسيرًا بالدولة السورية ومتى أطلق سراحه.

لقد أسهم فشل مشروع الوحدة بين مصر وسوريا في زيادة وزننا في عيون ناصر وعدد من قادة مصر، لأنه حدث ما سبق وأن تنبأنا به وأنذرنا منه. وهناك مراسلات كنا نبعث بها لناصر وكانت ترسل إلينا عدد من دول أخرى لمعرفة وجهة نظرنا حول هذه المسألة. وقد حدث ما سبق وأن توقعته وحدثت به عبد الناصر وأكدت عليه في مراسلاتي لعبد الناصر و قاسم.

لقد كنا في الواقع نقف بجانبهم بإخلاص وبذلنا قصارى جهدنا للحفاظ على النظام بمصر، وكنا نتحلى بالصبر في تعاملنا مع المعترضين على وجهة نظرنا. لأننا كنا نرى أن هذا الأمر يعد ظاهرة داخلية وسيأتي الوقت الذي يقتنعون فيه بأنفسهم بسوء فهمهم لهذه المسألة. ولهذا فقد سار نقدهم في صورة مزاح وكتبت الصحف تنتقد سياستهم الداخلية وتعامل مصر مع حزبها الشيوعي, ولكن من ناحية أخرى كنا نساعد بكل طاقتنا لدعم هذه الدولة سواء لقواتها المسلحة او اقتصادها على حد سواء.

عندما حان الوقت لتحويل مجرى نهر النيل، أصر الجانب المصري على دعوتي لحضور هذا الحدث. بحيث أذهب قبل وقت طويل من هذا الحدث لكي أستطيع التحرك بحرية، أتعرف على مصر وأجرى مباحثات مجدية. وقالوا إن لديهم عددًا قليلا من الشيوعيين داخل السجون، غير أن الرئيس قال إنه سيتم إطلاق سراحهم جميعا قبل وصولي.

وافقنا على هذه الرحلة التي كانت في مايو ١٩٦٤، ترأستُ الوفد وكان برفقتي اندريه اندريفيتش جروميكو – وزير الخارجية، جريتشيكو – نائب وزير الدفاع، وغيرهم من الرفاق. كان جريتشكو برفقتنا لأنه كان من المتوقع وأن يتم طرح موضوعات عسكرية في هذا اللقاء. أردنا بعد ذلك ان يلتقي جريتشكو مع الجانب العسكري من الجمهورية العربية المتحدة.

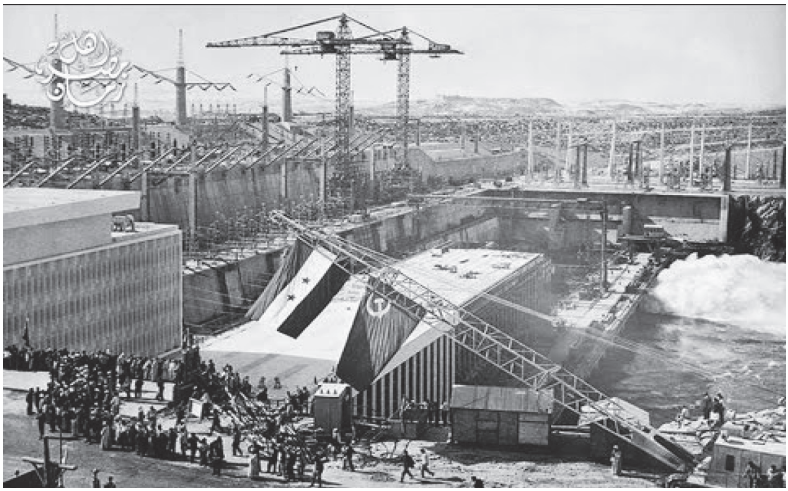

لم يكن جروميكو متعافي صحيا، ولكن حضوره كان أمرًا ضروريًا لمناقشة قضايا وإشكالات السياسة الدولية. وقد تم ترتيب اللقاء بشكل جيد، حيث جاء التنظيم حسب رتبتنا وعلاقاتنا. وكانت الأحاديث التي أجريناها طوال مدة الزيارة جيدة وودودة. شاهدنا خلال الزيارة بعض المدن، المواقع التي تم تشييدها بفضل جهودنا وقد أتت بثمارها. الأمر الذي أسهم في زيادة شهرتنا وسمعتنا الطيبة. وأذكر على سبيل المثال أننا قمنا بتشييد مصنع لإنتاج الأدوية، وقبل ذلك كانوا يدفعون مبالغ طائلة لاستيراد الأدوية من إنجلترا وفجأة أصبحوا يصنعونه بأنفسهم، وقد أسهم هذا المصنع في فتح الباب أمام استخدام الأدوية لأن الناس في مصر فقراء للغاية وقليلي الموارد المالية, ويتعذر عليهم شراء الدواء الباهظ الثمن. وفجأة بات لديهم الفرصة للحصول على هذا الدواء بسعر رخيص لتلبية احتياجات الشعب.

تجولنا كذلك في عدد من المصانع وكان الشعب في استقبالنا في جو من البهجة والسرور لقيامنا بتقديم يد العون لهم في إنشاء بعض المصانع والمعامل مما ساعد في خلق الآلاف من فرص العمل. ثم جاء يوم تحويل مجرى النهر،

تم عمل أنفاق لتصريف المياه وتحويل مجرى نهر النيل إلى مجرى آخر، وتهيئة الظروف المناسبة لتعلية السد وتركيب الأجهزة والمعدات. ذهبنا مع عبد الناصر إلى منطقة السد العالي بالقطار. لابد من القول بأن عبدالناصر قد ترك لدى انطباع جيد للغاية. فقد كان ناصر زعيما في عيون المصريين، وكان له هيبة كبيرة واستقبل بحماس كبير: الجميع يهتف ناصر! ناصر! ناصر!، وإنني أعلم كيف يقومون بذلك في مواقف أخرى، ولكني رأيتُ هذه المرة حماس يمتزج بالإخلاص، حماس يعبر عن مشاعر شعب مصر تجاه رئيسهم. وصلنا إلى أسوان وكان هناك الرئيس بن بيلا، رئيس الجزائر، ورئيس وزراء اليمن ولكن لا يحضرني اسمه الآن، والسيد عارف، رئيس جمهورية العراق، حيث تم دعوة كل هؤلاء لحضور حفل تحويل مجرى نهر النيل. لم تكن تجمعنا مع عارف علاقات جيدة، فقد اعتبرناه شخصا ذا توجه غير تقدمي ولهذا فقد أعربت لعبد الناصر عن رأي قائلا: « إنه شخص غير مريح، ولا يُستحب الحديث معه « وقبيل حفل الغذاء الذي نظمه عبدالناصر تشريفا للضيوف الحضور، جاءنا خبر يفيد بأن السيد عارف قام بالتنكيل بالقوى التقدمية في العراق. ولهذا قلتُ لناصر: « انه شخص غير مريح للغاية، تفيد معلوماتنا بأنه قام بهذا العمل بالفعل وقام إما باعتقالهم او القضاء عليهم ولهذا لا ينبغي الجلوس بجانبه، فقد كان ترتيب المقاعد على النحو الذي يجعلني أجلس بجواره مباشرة أو بعد شخص او اثنين على المائدة وهذا أمر بغيض للغاية».

يقول عبد الناصر: «اعتقد أن هذه المعلومات غير صحيحة، لا أعتقد أنه يقوم بذلك في الوقت الذي يحل فيه ضيفا بمصر وسيلتقي معك. وهو يرغب في هذا اللقاء لأنه يريد إقرار علاقات أكثر متانة مع الاتحاد السوفيتي». قلت لناصر: «أشك في ذلك، لأن هذا الأمر غير واضح في أحاديثه». يقول ناصر: «حسنًا أعلم ذلك». وبعد مرور بعض الوقت قال لي ناصر: «هل تعلم أنه أقسم بأنه لم يفعل ذلك، وأن هذا من اختلاق الصحافة البورجوازية، لم يكن لها وجود بالعراق من قبل. وأنا أثق فيه لأنه شخص متدين، يسجد طول الوقت على

ركبته في عبادة الله، يدعوه لتحقيق مطالبه . ولهذا فلا يمكن أن يكذب، أؤكد لك». سار حفل الغذاء بشكل احتفالي رائع وبعد ذلك تحدثت مع عارف . طرح عارف الموضوع بنفسه قائلا : «المعلومات التي حصلت عليها غير صحيحة، ومن أدلى بهذه المعلومات هم أفراد لا يحرصون على تحسين العلاقات بين العراق والاتحاد السوفيتي , وإنني لم ولن افعل ذلك». قلتُ له : «إنني سعيد بتصريحك هذا وأنك لم تفعل ذلك . ولكننا حصلنا على هذه المعلومات». من الواضح أن معلوماتنا لم تكن دقيقة إذن . أما بن بيلا، فقد كان من أفضل الشخصيات التي تركت لدى انطباعا جيدا للغاية . فهو شخص مثقف، مهذب، يتحدث في موضوعات كثيرة منها بناء الاشتراكية، الشئون الماركسية، فهو شخص يحرص على بناء نظام اشتراكي علمي، يقول أنه لا يوجد أي سبيل آخر لبناء الاشتراكية سوى الماركسية والطريقة العلمية . وأنا معجب بسياسته الداخلية . اذكر على سبيل المثال أن الحزب الشيوعي في الجزائر يعمل بصورة غير شرعية وهو في وضع معقد، لأنهم يعيشون بحرية واللجنة المركزية للحزب الشيوعي الجزائري تتصرف بكل حرية . فقد كان معظم قيادات الحزب الشيوعي معروفة للقيادة الجزائرية وكان الشيوعيون يقولون لي إن بن بيلا استدعى شخصيات بارزة من الحزب الشيوعي وسألهم : «ما هي طلباتكم ؟ من حقكم شغل مناصب في النقابات العمالية، اهتموا بقضايا التنوير والثقافة والاقتصاد» . وهذا يعني أن الشيوعيين لا يشكلون أي عائق عند تغلغلهم في الجهاز الحكومي .

نعود مرة أخرى للحديث عن الاحتفال بتحويل مجرى نهر النيل، فقد كان احتفالا مهيبا لدرجة أن أعدادا غفيرة من الشعب خرجت لمشاهدة هذا الحدث . فقد ألقى الرئيس كلمته، أما الوزير المسئول بشكل مباشر عن بناء السد، فقد أدلى ببيان للرئيس . ثم جاءت لحظة إطلاق شارة البدء . أخبرني الرئيس آنذاك : «هذا هو سدنا، ولكن انتم من قمتم بعملية البناء الفعلي له وقمتم بإقراضنا المبالغ المالية لبنائه، فهو مشروعكم الفني ولهذا أدعوك لكي تشاركني في الضغط على مفتاح تفجير السد المائي لتحويل مجرى النهر إلى مجرى جديد».

لقد كانت تلك مهمة شرفية بالفعل، ولهذا لم يكن هناك أي مجال للتراجع. فهذا شرف بالنسبة لي ؛ ولذلك فقد رحبتُ على الفور بهذا الاقتراح . وقمتُ مع الرئيس بالضغط على مفتاح التشغيل . وحدث الانفجار واندفعت المياه في المجري الجديد . وفي الحقيقة، قالوا لي بعد ذلك إن هناك فردين قد احتبسا داخل الأنفاق واجترفتهم مياه النهر، وقالوا فيما بعد أنه تم إنقاذهم . ولكني لا أعلم ما مدى صحة ذلك .

جرت احتفالية تحويل مجرى النهر بشكل مبهر للغاية، كان لابد من رؤية هذا المشهد، لأنه يصعب فيه وصف ذلك النور الذي كان يتلألأ على وجوه المصريين وكيف لمعت عيونهم عندما رأوا مياه النيل وهي تندفع في المجرى الجديد .

لقد حذروني من المناخ الجاف في أسوان، فالأمطار هناك تتساقط كل بضع سنوات . ولكني استعددت لهذا المناخ . وعندما وصلنا إلى أسوان لم يكن هناك أي مخبأ من أشعة الشمس الحارقة، غير أن المكان الذي كنتُ أجلس به كان جيدا والهواء كان باردا وكذلك المياه . ولكن فكرة الحصول على حمام بارد كانت دربا من دروب الخيال، لأن المياه في المواسير كانت ساخنة بفضل حرارة شمس أسوان .

تم تنظيم اجتماع في المساء، وقبل هذا الاجتماع كان هناك اجتماع آخر مصغر للخبراء والعمال السوفييت . حيث كان لديهم نادي هناك وقد دعوني لكي القي كلمة أمامهم، وقد رحبتُ بذلك . تحدثت معهم وناقشنا الأوضاع في البلاد ،وكان الوضع جيد بوجه عام وكذلك الحالة المعنوية لدى الشعب جيدة .

بدأ الاجتماع بعد غروب الشمس، والسبب في ذلك، لأنه من المستحيل التواجد في الجو المكشوف في فترة النهار . تقدم الرئيس ليلقي كلمته . ولأول مرة تحدث عن الاشتراكية التي يقومون ببنائها على أسس علمية . أي أنه ابتعد عن الحديث المعتاد حول بناء الاشتراكية العربية وبدأ يتحدث هنا ولأول مرة عن الاشتراكية العلمية . وذلك على الرغم من أنه لم يستشهد بأسماء ماركس ولينين. ولم يستشهد بالمفهوم الداخلي، وإنما وضع في اعتباره توجهات أعدائه وحلفائه الذين لا يدركون هذه المسألة جيدا . ولهذا فقد قدم تنازل مؤقت وعلى أية حال فقد كان ذلك خطوة للأمام وقد اعتدتُ على سماع ذلك .

كنتُ قد أعددتُ كلمة صغيرة لكي ألقيها في هذا الحفل وقد حظيت تلك الكلمة بإعجاب الحضور . وبعد ذلك جاءت كلمة أحمد بن بلا، وكانت جيدة للغاية . ثم تحدث بعد ذلك السيد عارف . وكان من الصعب

الموافقة على الحديث الذي أدلى به عارف لأنه كان معقدا للغاية من الناحية السياسية، فقد تشابكت كلمته بمفهوم غير صحيح . حيث تحدث فيها عن الاشتراكية العراقية فقط، ثم تحدث كثيرا عن الرب على اعتبار أنه رجل مؤمن . وعلى أية حال فلم تكن كلمته مثل كلمة ناصر ولم ترق لمستوى كلمة أحمد بن بلا على الإطلاق .

وبالنسبة لكلمة رئيس وزراء اليمن، فلم تتسم بشيء مميز . فقد كانت كلمة افتتاحية معتادة في معظم الاجتماعات ولهذا لم تثر حولها أي حماس . ولم يقل أي شيء يمكن الاعتراض عليه . ولكن ينبغي النظر بعين الاعتبار إلى الوضع الداخلي لهذه الدولة ووجهات نظر رئيس وزرائها . فهو ليس شيوعيا، بل هو قائد عسكري ولهذا لا يمكن أن نطلب منه أي شيء. لم يكن لديه أية دعوات خاصة . ولكنه أوضح رغبته في إقامة علاقات صداقة مع الاتحاد السوفيتي . و نحن فهمنا ذلك وقدمنا له الدعم والمساندة . وقمنا آنذاك بإنشاء مرسى بحري لليمن إلى جانب منشآت أخرى . ولكننا لم نجر مشروعات كبيرة باليمن بسبب الوضع الداخلي الذي لم يكن مستقرًا في ذلك الوقت، ولم يكن رئيس الوزراء لديه الوقت الكافي للاهتمام بإنشاء مشروعات . فقد كان يقود حربا ضد الأمير البدر، الذي أصبح ملكًا بعد ذلك فهو شخصية مهمة . سأتحدث عنه فيما بعد لأنني لم ألتق معه سوى مرتين أو ثلاثة على

الأرجح. فهو شخصية غريبة الأطوار، التقيتُ معه عندما كان وليًا للعهد عند الملك اليمني .

جلست في هذا الاجتماع إلى جوارأحمد بن بلة، عندما كان عارف يلقى كلمته، ظل بن بلة يضحك طوال الوقت ويهتز في مكانه ويبتسم لي . وأدرك أنني لا أوافقعلى ما يقوله عارف ولذلك فقد كان يعبر عن رأيه بكل صراحة تجاه كلمة عارف . عندما أوشك عارف على الانتهاء من كلمته، أخذ بن بلة يقنعني بأن أتحدث بكلمة، قلتُ له : «اسمح لي هذا سيكون من باب سوء التصرف . لقد أعطيت لي الفرصة بالإدلاء بكلمة وقد تحدثتُ بالفعل وقلتُ ما أريد قوله،أما الآن فليس لدي كلمة مجهزة . وإذا ما تحدثت بدون إعداد سابق، سيتم تأويل ما أقوله بشكل سيئ، لأنني من الممكن أن أعلن عن أية دعوات خاصة لم يضعها الضيف». قال لي : «ماذا تقول !». وأخذ يقنعني : «ثق في وأن ما تقوله سيتم استيعابه بشكل جيد . وإذا لم يكن لديك نص مكتوب، فإنني على يقين من أنك ستجد ما تقوله وقل المفيد بالنسبة لعارف وباقي الحضور». رفضتُ هذا المقترح لأنني رأيت أنه لن يكون محببا بالنسبة لناصر ثم قلتُ : «ليس من اللائق أن أتحدث بصراحة مع عارف في هذا الاجتماع. أليس رئيسًا لجمهورية العراق». وهنا تدخل عبد الناصر وقال لي : «أنصحك بأن تتحدث . فأنت لن تدخل في جدال معه ولن تذكر اسمه، ولكن عبر عن وجهة نظرك، والتي ستكون بالطبع مفيدة لعارف وباقي الحضور .وإلا سيُفهم أننا نشاركه الرأي». قلتُ : «ضع في اعتبارك أنني سأعبر عن وجهة نظري التي تعلمها أنت ولهذا لا تدعي علي». وقد أدليت بكلمة بالفعل تحدثت فيها عن الاشتراكية العلمية . وكان لدى عارف مجموعة من الأفكار مثل تلك التي كانت لدى عبد الناصر في وقت من الأوقات . ولكنها كانت بالنسبة لناصر مرحلة وانتهت، أما بالنسبة لعارف فهو مازال يعيش نفس المرحلة ولم ينتهِ منها : الشعب العربي، نبذل قصارى جهدنا لأجل الشعب العربي و نحن نؤمن بالشعب العربي . فهو لم يقسمه إلى طبقات وإنما يتعامل معه ككتلة واحدة . وقد طرحتُ هذا الموضوع في كلمتي وقلتُ : «هناك البعض ممن يتحدث عن الشعب العربي مثله مثل باقي شعوب دول العالم، لديه بناء معقد . فهناك عرب

من العمال . فمن يقصد أي محاضر هنا من تلك الفئات في حديثه . ثم إن العرب الفلاحين يريدون الحصول على أملاك والعرب من أصحاب الأملاك لا يريدون إعطاء الفلاحين تلك الأملاك . والعرب العمال لديهم مطالب : فهم يريدون العمل قليلا مقابل الحصول على أجر كبير.فأنت مع من من هؤلاء العرب ؟ هل مع العرب العمال أم الفلاحين أم أصحاب رأس المال ؟». وأضفتُ أمثلة أخرى خاصة بالماركسية وأنهيت كلمتي .

وقد أدرك من فهم حديثي إنني أتجادل مع عارف وكلمته . ولكن عندما كنت استعد لإلقاء الكلمة، كان كل تفكيري منصبا على تجميع الأفكار وترتيبها بشكل متتالي ولهذا كنتُ في حالة من القلق، هل سيفهمني العمال الحاضرين بهذا الاجتماع، خاصة وأن غالبيتهم غير متعلمين وقد نمو وترعرعوا على أن التقدم بالنسبة لهم يتمثل في الاشتراكية العربية ولابد من النضال لحماية العرب . وهذا أمر مفهوم، لأن مصر ظلت لسنوات طويلة تحت أقدام المستعمر الإنجليزي، ثم خاضت الشعوب العربية حربا ضد إسرائيل التي احتلت أراضيهم . ولهذا فإنهم عندما يقولون " لصالح العرب «و» لصالح الشعب العربي «فهم يتصورون في مفهومهم أن هذا ضد العدو الخارجي. وفي هذه الحالة تختفي أية مشاكل داخلية او قضايا طبقية . وبالنسبة للأحزاب الشيوعية سواء كانت بمصر او باقي الدول فهي تعمل بشكل سري وتتسم بالضعف . وقد انتابني القلق بعدما كشفت البناء الطبقي للمجتمع

المصري والدول العربية الأخرى، فكيف سيدرك العمال ذلك ؟ هل سيفهمون بشكل صحيح ؟ غير أن الشعب ينصت ويستمع بمنتهى الحرص واليقظة . ويبدو أن المترجم قد نقل حديثي بشكل جيد لأن الجمهور استقبل حديثي بصورة جيدة واستحسنه وقوبل بتصفيق حاد.

وبعد أن أنهيت حديثي، أبدى الحضور إعجابهم بالكلمة، وكان أحمد بن بلة راضيا عنا، وقال لي : «أحسنت» . ووجدت الإطراء والمديح من عبد الناصر. ولكن بالنسبة لناصر فقد مدحني لأنه المضيف وهذا من واجب الضيافة، أما بن بلة فقد استوعب كلمتي بالفعل وكان يتفق معي بشكل كامل ولم يكن لدى أدنى شك في انه يقول ما يفكر فيه . انتهى الجميع من الإدلاء بكلماتهم، وأغلق الاجتماع أبوابه . وأدرك عارف مكنون كلمتي . إنني اعتبره شخصًا محدود الأفق ولكن لا يجب أن يكون ذكيا وفطنا كي يدرك أن كلمتي ما هي إلا مجادلة لحديثه . وعلى أية حال فقد ترك لدى هذا الشخص انطباعا سيئا منذ البداية . ولكنه رئيس ولذلك يتعامل معه عبد الناصر و أحمد بن بلة بشكل جيد . وقد أعرب بن بلة عن رأيه صراحة وقال : «أيها الرفيق العجوز، عليك أن تفهم أن عارف معنا ولن يفترق عنا أبدا . سيسير معنا حتى النهاية ولهذا يجب علينا مساندته . وما لا يدركه الآن، سيجيء عليه الوقت الذي يدركه فيه لاحقًا. ولا يوجد من يفهم أكثر منه . وإذا ما كان هناك أفراد لديهم مواقف أخرى، فهم ضدنا وليسوا معنا . فهو يساند الوحدة العربية ويدعمها وفقا لمفهومه . وعلى أية حال فهو يقف مع الوحدة معنا ولهذا فلا يجب إبعاده بل على العكس، يجب علينا مساندته. وفي حالة عدم وجوده من الممكن أن يأتي آخرون ذوو سياسة مخالفة». راقت لي كلمات بن بلة كثيرا، فقد تحدث بشكل صحيح، أجبته قائلا : «إنني أفهمك أيها الرفيق بن بلة، في الواقع لابد من التحلي بالصبر وليس هناك سبيل آخر».

لقد اتفقنا على التحلي بالصبر في التعامل معه . وقد دفعني ناصر و بن بلة على هذا الصبر . قلت لهم : «اتفق معكم، هذا تفكير صائب، ولا داعي

لوخزه بالدبابيس التي تزعجه وتوهن من عزيمته، بل على العكس لابد من مساندته». وبعد عودتى إلى موسكو تبادلنا وجهات النظر حول هذا الموضوع وقررنا الاستماع إلى نصيحة بن بلة و عبد الناصر في محاولة لدفع عارف وفهم موقفه الذي يتمسك به .

وهكذا انتهى الاجتماع المنعقد بمناسبة تحويل مجرى نهر النيل بأسوان. وقال لي الزملاء السوفييت، الذين يعرفون اللغة العربية أن العرب كانوا يستمعون لكلمتي باهتمام وأدركوها جيدا. لا أتذكر ذلك الخبير الذي كان يجلس بجوار السائق العربي، حيث كان هذا السائق يجلس بالسيارة ويستمع لكل الكلمات التي جاءت بالاجتماع بما فيها كلمتي الأولى والثانية . وبعد أن غادروا قال لي : " هذه هي أول مرة في حياتي أستمع فيها لهذا المفهوم عن الشعب العربي والوحدة العربية بمثل هذه الصراحة . فقد كان حديثا صائبا . في الواقع نحن لدينا مصالح متعددة».

فهذا هو مفهوم التفكك الطبقي الذي تناولته بشكل جاد وكان لدينا منذ زمن قديم، ولكنه الآن يشكل ظاهرة جديدة لدى العرب . لم يطرح أي من الكوادر القيادية ذلك الموضوع . فمن المرجح أن يكون الشيوعيون قد طرحوه من قبل ولكنهم كانوا يعملون بصورة سرية وكان الحزب الشيوعي قليل العدد، ولهذا لم يجد له مريدين بين صفوف الشعب . ولم يصل ذلك إلى البسطاء من الناس . لقد كنتُ سعيدا لأن كلمتي أسهمت في زرع بذور الفهم الصحيح لهيكل وبناء المجتمع الذي يُعد مجتمعا طبقيا، وكل طبقة لديها مصالحها الخاصة التي تتعارض مع مصالح الطبقة الأخرى .

كان مخططا في برنامج زيارتي لمصر، الذهاب إلى البحر الأحمر . قيل لنا إن هناك سفنا و نحن سنقيم عليها . لا أتذكر مدة بقائنا هناك هل كان يومان أو ثلاثة، لا أعلم تحديدًا . فقد كان بمقدور محبي الصيد اصطياد السمك هناك، أما نحن سنتباحث فيما بيننا و نجري مباحثات عامة مع ممثلي الدول العربية الأخرى . وأكرر ممثلي تلك الدول كانوا : اليمن، الجزائر، العراق . لم

يستطع ممثلي سوريا الحضور . فبعد نسف الوحدة التي تم إنشائها، لم تحضر سوريا .

ذهبنا إلى منطقة البحر الأحمر بالطائرة . وجدنا السفن هناك بالفعل . تم توزيعنا عليها . كان الجو أكثر انتعاشا هناك عن تلك الصحراء التي تحتضن أسوان . فهواء البحر منعشا وسهل التنفس . ويقوم الصيادون الآن بصيد الأسماك في الوقت الذي يقوم فيه ممثلو الدول بتنظيم اللقاءات والمباحثات .

كانت الأحاديث التي أجريناها مفيدة ومثمرة لنا . فقد أوضحت وجهات نظرنا من جديد . وأثناء تبادل الآراء وجدنا الكثير من نقاط التماس ومزيد من التفاهم المتبادل حول الكثير من الموضوعات والقضايا التي تتطلب الحسم . ولا أتذكر الآن ما هي تلك الموضوعات تحديدا ولكنها قضايا دولية، موضوعات خاصة بالبناء الداخلي ووحدة الدول التي تقف عند وضع محاربة المستعمر والتعايش السلمي . وسبق وأن تحدثنا في الاجتماع الأول حول وجهات نظرنا إزاء النظام والبناء الداخلي لكل دولة . وعن ذلك الطريق الذي من المفترض وأن تسلكه البورجوازية او الاشتراكية . تحدث عبد الناصر مدافعا عن الاشتراكية العلمية، وتحدث عارف مدافعا عن الاشتراكية العربية ليس لأنه يعترض بوجهة نظره على رأي عبد الناصر . هذا ليس صحيحا لأن عبد الناصر كان بالنسبة له شخصية ذات نفوذ، وكان دائما ما يسانده بدون تفكير . وما هو واضح لنا لم يتضح بعد للسيد عارف . لا أقول ذلك عن أحمد بن بلة، الذي أراه الأكثر قربا لنا نحن الماركسيين، لم يتحدث صراحة عن ماركسية لينين ولكنه ينتهج هذا المبدأ في حياته العملية . وهو يتصرف على هذا النحو لاعتبارات داخلية لأنه يتوجب عليه وان ينقل الشعب إلى نقطة النضج والاستيعاب الصحيح لهذا المبدأ . لا يجوز الابتعاد عن شعبه حتى لا يعارضه ولا يعطي الفرصة للأعداء لاستغلال مواقعهم القوية بين شعوب العالم العربي الأمية . ولا أعلم الآن ما هو وضع بن بلة بعد الإطاحة به وقد علمتُ بذلك من خلال الصحف . ولكني أرى أن ذلك يعد خسارة كبيرة للاتحاد السوفيتي،

دول الكتلة الاشتراكية والحركة الشيوعية. لأنني رأيت أنه يعد شيوعي المذهب، والسياسة التي ينتهجها لم تكن تتعارض والتكتيك الشيوعي. المسألة هنا ليست نظرية، بل هو تكتيك كان يسير عليه وينتهج سياسة حكيمة وصائبة.

البحر الأحمر – بحر دافئ المياه، ولكني للأسف لم أسبح فيه. أما زملاؤنا فقد سبحوا فيه واصطادوا السمك أيضا، فهو بحر غني بالأسماك المختلفة، وشواطئه أشبه بشواطئ "بحر قزوين" المحاط بالرمال والصحراء أيضا. والمشهد من داخل البحر إلى الشاطئ هو مشهد فريد من نوعه فهو ممزوج بالصحراء والرمال والكثبان الرملية.

حان الوقت لمغادرة المكان، طرنا إلى أسوان مرة أخرى، وواصلنا طريقنا من هناك وفي اللحظة الموضوعة. حيث كان من المفترض وأن نذهب لزيارة مدينة الأقصر – العاصمة التاريخية القديمة للمملكة المصرية، الغنية بالآثار والتي كان لابد من إنقاذها من الغرق.

لا يمكنني أن أتذكر الآن كيف وصلنا إلى أسوان، هل عن طريق القطار ام الطائرة. فقد كانت تلك الزيارة قصيرة ولكنها ثرية، فقد مر عليها الكثير من الوقت وتراكمت في رأسي الكثير من تفاصيلها، فمن الصعب الاعتماد على الذاكرة أو أية مصادر أخرى لاستعادة تفاصيل تلك الزيارة. وكل ما تبقي في الذاكرة عن تلك الرحلة هو مشهد تدفق مياه نهر النيل من الأعلى في شريط ضيق. ولكنه مشهد حزين للغاية، لأن مساحة المناطق المزروعة الواقعة على يسار ويمين النهر صغيرة للغاية وباقي المساحة عبارة عن صحراء قاحلة. ومفهوم الصحراء معروف لنا جغرافيا. ولكن عندما ترى تلك الصحراء على أرض الواقع في الهواء الطلق يتشكل لديك انطباع آخر.

عندما تباحثنا مع الرئيس ونائبه عامر، حول الاستعداد العسكري، اتضح أنهم بالفعل قاموا بإعداد كتائب للعمل في الصحراء. ومن الواضح أنهم تدربوا

بشكل جيد في حالة إذا ما تطلب الأمر العمل في الصحراء، أصبحوا قادرين على العيش في جو الصحراء يتغذون على كلأ المرعى. ولكن أي كلأ هذا الموجود في هذه الصحراء القاحلة؟ يقال إنه يوجد ثعابين في الصحراء ولهذا فهي تمثل الطعام بالنسبة لهم. واتضح كذلك أن الشخص يستطيع العيش في الصحراء لوقت طويل في حالة إذا ما تلقى التدريب المناسب.

تضمن برنامج زيارتي لمصر كذلك الذهاب برفقة الرئيس عبد الناصر إلى مدينة الإسكندرية لتفقد المشروعات الرامية لاستصلاح الأراضي بالمستقبل، أي بعد إنشاء مشروع السد العالي، حيث ستزداد عملية استصلاح الأراضي بنسبة الثلث، وهذه نسبة كبيرة للغاية. لابد من الوضع في الاعتبار ان هذه الأراضي صالحة للري مما يزيد من قيمتها. فهي تزيد نسبة المزروع من المحاصيل بمعدل الضعف أو ثلاثة مرات لبعض المحاصيل الزراعية سنويا. ولكن ماذا يعني كلمة عام (سنة) في مصر؟ إن البرد لديهم بدون ثلج، أيهو مجرد جو بارد من خلال منظورنا نحن. ومن هنا تبرز أهمية السد العالي بالنسبة لشعب مصر، فأحلامهم هنا ليست مرتبطة بالحصول على الطاقة الكهربائية فحسب، بل لأجل توسيع البقعة الزراعية وتهيئة الظروف لضمان توفير الطعام والمحاصيل الزراعية.

سافرنا ووصلنا إلى منطقة ما، كان هناك عدد كبير من المهندسين الذين يضعون الخطط الخاصة بتحديد المناطق السكنية. ولكن كان مبدأهم يسير على الطريقة القديمة، أي أن يتم تخصيص قطع صغيرة من الأراضي التي سيحصلون عليها نتيجة للري ويعتمدون على تلك التقنية القديمة التي تعود لآلاف السنوات. وعندما سافرت مع عبد الناصر، شاهدت من نافذة القطار أو السيارة جاموسة معصوبة العينين، تنزح الماء وتلقي به في حقول الأرز لأجل ريها. وكان حقل الأرز صغير جدا، وكأنه نموذج مصغر من الحقل. وكان هناك بعض الفلاحين الذين يقومون بحرث الأرض بأيديهم. من الواضح إذن أن الناس تعيش هنا في فقر مدقع، مثل حياة القوارض داخل الجحور. وأخص

بالحديث هنا حياة الناس في القرى . وأعتقد أنه بسبب هذا المستوى من الفقر المدقع، لم يقترح الرئيس زيارة إحدى المواقع السكنية . واستطعت فقط مشاهدة الطرق، وقد رأيت في مكان ما شيء أشبه بالتل الصغير، ولكن اتضح أنه مجموعة من الأفراد تعيش هناك، ولا أعلم هل كانوا هؤلاء هم الأكثر بؤسا وحرمانا أم لا، حتى أن المظهر الخارجي لسكان المدينة كان يبدو فقيرا . وهذا أمر مفهوم، لأن الإحصائيات تشير إلى مستوى معيشة متدني للغاية .

وذات مرة ذهبنا مع الرئيس في سيارة واحدة، وفجأة غاب الرئيس عن الوعي وقام بإيقاف السيارة، انغلقت عيناه، استلقى بظهره على مقعده . الأمر الذي أصابني بقلق بالغ وقال إنه يشعر بوعكة صحية ولديه دوار في الرأس ولن يستطيع أن يكمل السير بالسيارة . واعتذر وانتقل إلى سيارة أخرى واعتقد انه عاد إلى الإسكندرية . واقترح علينا أن نواصل رحلتنا المخطط لها . لا أتذكر من أكمل معنا تلك الرحلة، ولكن يبدو انه كان عامر، لأنه كان يرافقنا بشكل دائم وكان هناك حالات نادرة عندما لا يكون فيها عامر موجودا مع الرئيس أثناء مشاهدة معالم البلد أو المنشآت .

ذهبنا وشاهدنا المواقع، كان الأفراد يبذلون قصارى جهدهم للتحكم الرشيد في استخدام تلك المساحات الجديدة من الأراضي وتهيئة الظروف الإنسانية الملائمة لسكان القرى . تشكل لدى انطباع يفيد بأن الركيزة الأساسية لا تعتمد على بداية متقدمة، ولكني بالطبع لم أفصح عن انطباعي هذا وأخذت أعقد مقارنة مع جمهوريات وسط آسيا . حيث هناك تشابه كبير في الظروف : فالنشاط الرئيس هو النشاط الزراعي الذي يعتمد على نهر النيل كما الحال في كل من أوزباكستان وطاجاكستان، وبدون مياه الري هذه لا يمكن الحصول على أية محاصيل زراعية، وأخص بالذكر محاصيل مثل الأرز والقطن والفواكه . وبالنسبة لمحاصيل الفاكهة في دول وسط آسيا فهي رائعة ولكنها تعتمد جميعا على مياه الري وفي حالة اختفاء هذه

المياه سيختفي بالتالي كل هذه الأنواع وتتحول الأرض إلى صحراء جرداء . لقد قطعنا شوطا كبيرا في أجراء أعمال ميكنة كبيرة لتسوية الأراضي وقياس المناسيب وشق القنوات . ولكني لم أجد أي شيء من هذا القبيل هنا . بالنسبة لهم فإن تمهيد الأرض بهذه الطريقة هو أمر مستحيل، ولهذا فقد كنتُ أنتقد خططهم لاستصلاح الأراضي . ولكني كنت متأرجحا لوقت طويل – هل أعبر عن شكوكي هذه للرئيس أم لا، كنت أخشى من أن يعطي ذلك حجة للتفكير بأنني أدفعه بهذه الطريقة نحو إجراء اتحاسمة وجذرية في إدارة المجال الزراعي او نحو العمل الجماعي أو باقي الأشكال الأخرى للاقتصاد القوي . على الرغم من أنني كنتُ أرى في مصر إمكانية إحراز تقدم في استصلاح الأراضي التي ظهرت نتيجة لتدفق مياه النيل بفضل بناء السد العالي. وصلنا إلى الإسكندرية، وكان من المفترض وأن نجتمع في المساء وفقا للخطة، ذهبنا لتناول الغذاء . بالنسبة لي كان من المفترض وأن أتناول الغذاء في قصر منفصل، وكان ذلك القصر ثريا وفخم للغاية فهو قصر الملك . وفي المساء دعاني عبد الناصر إليه، حيث كان لديه استراحة واسعة وجيدة ومريحة . وكان بمقدوره أن يستقبل فيها عشرات الضيوف . وقد اجتمعنا في قاعة داخل تلك الاستراحة، ذهبنا نحن الاثنان معا ولم يكن عامر معنا .

كان لدي طول الوقت رغبة داخلية تدفعني للتعبير عن معتقداتي، اعتذرت للرئيس وأوضحت له أن حديثي هذا لايمكن أن يكون توصية بأي حال من الأحوال، إنها مجرد آرائي ولا يمكن أن أفرضها على أي طرف .وتوجهت إليه ولا أتذكر صيغة حديثي معه ولكن أعتقد أنه عندما كنا بمفردنا كنت أخاطبه "الرفيق ناصر" وأحيانا «الرئيس».

قلتُ له : «لدى بعض الاعتبارات ولكني أشعر بالتذبذب حيال الإفصاح عنها من عدمه «ولكني وجدته قد ترك لدى انطباع جيد : نظرة مليئة بالحنان والإنسانية تجاهي. فقد أعجبني وإنني الآن أشعر بالتعاطف معه عندما أتذكر لقاءاتنا، أحاديثنا وزيارتي لمصر، قال لي : " قل ما يدور في ذهنك».

قلتُ له : «إنني أفكر في تلك الأراضي التي يجب عليكم إعدادها وتمهيدها للزراعة . أريد أن أسألك ما هي رؤيتك لاستصلاح تلك الأراضي ؟» أجاب قائلا: «سنقوم باستصلاحها وتقسيمها على الشعب، لدينا الكثير من الأفراد الذين لا يملكون أراضي، فالاحتياج هنا كبير للغاية». هذا لم يكن جديدا بالنسبة لي . فقد كنت اعلم ان لديهم عدد كبير من الأيدي العاملة أكبر من الأعمال المتاحة . فهم في حاجة لزيادة حصص الأرض ويتوقعون الحصول عليها بعد إنشاء السد العالي .

يقول عبد الناصر : «هل تفكر في توزيع تلك الأراضي على الفلاحين؟» قلتُ له : «بالطبع هذا عمل كبير حيث سيكون لديكم ثروة ضخمة . ولكن فلتسمح لي أن أعبر عن آرائي . أرجو أن تفهمني بشكل صحيح ولا تنزعج من إلحاحي كضيف، أنها مجرد أراء ولا أستطيع فرضها عليك . استمع لي ولك كامل الحق في الرد علي وكيفية دراسة هذه الاعتبارات هو شأنك الخاص» ، يقول : «تفضل، أنا أسمعك» .

قلتُ له إذا ما كنتُ في مكانك، فلن أقوم بتوزيع تلك الأراضي، بل سأنشئ مزارع حكومية تابعة للدولة والتي نطلق عليها لدينا مزارع حكومية وهي عبارة عن منشآت زراعية حكومية سوفيتية، و نحن نتمتع بخبرة كبيرة في هذا المجال . وقد قمنا بإنشاء مثل تلك المزارع في أوزباكستان، تركمانيا، و طاجاكستان . وقبل ذلك الوقت كنا قد أنشأنا العشرات من المزارع الحكومية وقمنا بتشغيل تلك المزارع الجديدة منذ عدة سنوات . ولهذا هناك إمكانية لإبرام اتفاق حول استغلال تلك المزارع، وكيفية استثمارها . أستطيع أن أتحدث بشكل دقيق وبدون أرقام ولكن يمكن الاستعانة بالذاكرة لاستذكار تلك الأرقام: " سأقول لك ما الذي نفعله . فنحن الآن نقوم بأعمال كبيرة في منطقة السهول القاحلة وهناك إمكانيات كثيرة . ومسألة استصلاح هذه الأراضي يتوقف على حجم الاستثمارات وكمية المياه المتاحة . رفضنا إقامة مزارع جماعية فوق هذه الأراضي، وقررنا إنشاء مزارع

حكومية، أنشأنا قرى على طراز المدن بحيث تتضمن كافة وسائل المعيشة والخدمات والمرافق وشيدنا المدارس وحضانات للأطفال وحدائق . أي قمنا بتوفير كل سبل المعيشة لمن يعمل في تلك المزارع . هذا يتطلب بالطبع الكثير من الموارد والاستثمارات. ولكن التجربة أوضحت لنا أنه يكفي زراعة ثلاثة محاصيل فحسب، وستكون قادرة على الإتيان بثمار تلك الاستثمارات. وتعتمد المحاصيل الجيدة في الأراضي المروية على كيفية استصلاح تلك الأراضي والخبرة في التعامل معها . وفي ضوء ذلك يسهل الحصول على ٣٠ سنتنار من القطن. (سنتنار = ١٠٠كجم – المترجمة).

وكلما زادت جودة المزارع، زاد الإنتاج الجيد بها . وكان رجال الاقتصاد لدينا يرسلون لى التقارير التي تفيد بأنه إذا وضعنا تكلفة هذا المحصول في تصنيع المنتجات القطنية بدلا من تصدير القطن الخام، سيتم تعويض حجم الاستثمارات بقيمة ٢ـ ٢,٥ من تكلفة المحصول، وفي حالة وجود محصول جيد ستزداد القيمة مرة ونصفثم لتكن الضعف فيما بعد . هذا يعني أنه في غضون أربع سنوات ستكونون قادرين على تعويض كل تلك الاستثمارات، مما سيمنحكم موارد مالية كبيرة. وبالتالي فإذا ما أقمتم مزارع حكومية وفق مستواكم، ستتحول تلك المزارع إلى ماكينة طبع النقود . وستعود بالنفع على الشعب المصري لأنك بذلك تقوم بتحويله إلى أيدي عاملة في تلك المزارع الحكومية، وسترفع من مستوى ثقافته، وتأهيله وبالتالي سيزداد راتبه بشكل كبير. أما الآن فأنتم لا تعملون على هذا النحو، وإنما تعملون بطريقة الطور الذي يدور في الساقية لكي يروى الأرض . أرجو ألا تستاء مما أقوله، ولكن سبق وأن رأيت في كتاب به خرائط مثل هذه الطريقة لري الأرض في حقبة ما قبل الثورة وهو ما يحدث الآن في مصر ". لقد كانت علاقاتنا مع الرئيس طيبة للغاية ولهذا فقد تحدثت بدون تكلف واعتبرت أنه سيفهم ما أقوله بصورة صحيحة ولن يتذمر من هذا الحديث. " إذا أن هذه الطريقة المستخدمة في مجال الزراعة و ري الأراضي هي طريقة قديمة للغاية منذ عهد الملك رمسيس الأول ومازال معمولا بها حتى عهد عبد الناصر الأول

أيضا، لقد مرت مئات السنين عليها، فلماذا الإصرار على استخدامها حتى الآن ؟ لان الزراعة هنا تعتمد على قطاعات صغيرة من الأرض . فالفرد لا يستطيع أن يستخدم الطلمبة أو ماكينة جمع القطن وآلة البذر . فمن الصعب نقل مثل تلك البالات إلى هناك، فلا يوجد مكان لتطويرها وصيانتها . ولهذا فإنني أرى أنكم تهيئون ظروفا غير متقدمة لإدارة المجال الزراعي . وإذا ما قمت بتوزيع تلك الأراضي على الفلاحين، فإنهم سيشعرون بالامتنان والشكر لقيامك بهذا العمل الخير والطيب . فهو عمل تقدمي بالفعل . ولكن بعد ذلك لن تستطيع إدخال التكنولوجيا بهذه الأراضي لان تلك القطاعات الصغيرة من الأراضي لن تصبح بحاجة إلى أي نوع من أنواع التكنولوجيا . فالفلاح سيصبح عبدًا لأرضه، لان كل مجهوده سيعتمد على المجهود اليدوي فحسب .وكذلك لن تستطيع التحكم في الأجور والرواتب التي سيحصل عليها الفلاحون وبالتالي ستفقد هذا الجانب وتعود مرة أخرى لتطبيق منظومة الضرائب. وفي ظل هذه المنظومة سيصبح العائد من قطاع الإنتاج الزراعي قليلا وكذلك هامش الربح الذي يعود للدولة . وإليك رأي في هذا الشأن : إذا ما وافقت على وجهة نظري أعدك بأن العائد سيكون أفضل بكثير عن ذي قبل . كل ماعليك هو تجهيز وفد حكومي رفيع المستوى سيذهب إلى أوزباكستان، طاجاكستان او تركمنستان بحيث نستطيع أن نستعرض أي مجال زراعي لكي يشاهد هذا الوفد على أرض الواقع ما يلي : زراعتنا، الماكينات والمعدات المستخدمة، أماكن توزيع المياه .... إلخ. وقد قمنا بذلك على أعلى مستوى، ونظرًا لوجود قيادات حكيمة هناك، فإن المجال الزراعي يتم إدارته على نحو فعال . لقد كنتُ أجاهد مع نفسي طويلا – هل أفصح لك عن رأي أم لا، ولكني في النهاية أفصحت بما يدور في خلدي . والأمر يرجع إليك إذا ما استعنت برأي وإذا لم يصلني رد منك فاعتبر وكأنك لم تسمع أي شيء مما قلته لك . فلن يفرض عليك أي شيء» .

ولكنه كان ينصت إلى ما أقوله بكل اهتمام وقال لي : «أعتقد أن هذه الطريقة لا تناسبنا. أولا : ليس لدينا الكوادر المطلوبة إلى جانب وجود الفساد.

فهذا أمر مستحيل . فمن الصعب إحكام السيطرة والرقابة وبالتالي سيصبح القطاع الزراعي من القطاعات الخاسرة وليست المربحة». قلتُ له : «هذا شأنك أنت، لقد استعرضت وجهة نظري والأمر إليك . فأنت الأكثر دراية بطبيعة شعبك جيدا وكذلك بالقطاع الزراعي لديكم ؛ولهذا مهما كان قرارك، فالأمر لا يعنيني في شيء . إنني أثق فيك وأنت أكثر من يعلم ما هو النافع والضار بالنسبة لكم . لقد تحدثت بشأن عدم وجود كوادر لديكم إلى جانب وجود الفساد . من الواضح إذن أن لديكم جرائم سرقة . و نحن أيضا كان لدينا مثل تلك الجرائم ولهذا لابد من الرقابة . إذا ما كان هناك إمكانية لكي يربح الأفراد مزيد من الدخول المنهوبة، سيزيد عدد اللصوص بالطبع . وفي حالة فرض الرقابة تحت إدارتك المباشرة، سيعود بالنفع على شعبك وميزانية دولتك، وسيكون ذلك بمثابة بوابة نقدية ستجلب لك الأموال وتحصل على ملايين من الروبلات» ولكن مع فارق العملة، فهم يتعاملون بالجنيه .

«وإذا لم يكن لديك الكوادر المناسبة، فمن الممكن اختيار ضباط مناسبين من الجيش، وإرسالهم للاتحاد السوفيتي وسنقوم بتدريبهم على ذلك. وسيعملون هناك طوال فترة بناء السد العالي . وفي هذا الوقت ستكون في وضع الاستعداد لاستقبال كمية كبيرة من المياه لاستصلاح مساحات كبيرة من الأراضي وسيصبح لديكم الكوادر المدربة التي تلقت النظريات الاقتصادية وحصلت على التدريب اللازم وقادرة على العمل بنفسها . ويمكن كذلك إرسال العمال وتدريبهم على استخدام الجرارات وماكينات المبذرة للقطن، وماكينات قطف وجني والقطن والأعمال الأخرى . نستطيع أن نقدم لكم الحقول لدينا لكي تستطيعوا تدريب الأفراد عليها . وهذا أمر سيأتي مع الوقت والخبرة. من الواضح انه سيصبح لديكم خبرة قوية في المجال الزراعي فيما بعد مثلما الحال لدى الأوزبيك. في الحقيقة، قبل الثورة لم يكن هناك اختلاف كبير بين الأوزبيك والفلاحين لديكم، كانوا يحصلون على الماء عن طريق السواقي التي يديرها الجاموس ونفس تلك الطريقة كان يستخدمها الطاجيك والكازاخ للحصول على الماء . وعندما توصلنا إلى بناء

المزارع السوفيتية الكبرى، أصبح هناك تنظيم جيد للعمل، وحقول جديدة ووسائل أخرى للري .

كنا في الماضي نقوم بتسوية وتمهيد الأراضي، وأنشأنا القنوات المائية ولكن المشكلة في وجود إهدار كبير في المياه . وكان من الضروري العمل على إصلاح ذلك النظام لأن في كل فصل من فصول العام كان يتم اجتراف القنوات بالردم من الأرض».

يجدر بي الإشارة إلى أنني عندما كنت في زيارة لفرنسا، نصحني الرئيس الفرنسي د يجول بزيارة إحدى المزارع . لا أتذكر اسم تلك المحافظة التي ذهبت إليها ولكني أتذكر أنها كانت واقعة على الحدود مع إسبانيا . ولقد أدهشني نظام الري لديهم. حيث أنهم أقاموا مواسير من الحديد والإسمنت لتوصيل المياه، الأمر الذي يحول دون إهدار الماء . وهذا النظام يقوم بتسهيل عملية توزيع المياه وكل ما هو مطلوب هو تقديم درجات الميل والانحدارات المناسبة وحساب كمية المياه المطلوبة وتوقيت احتياجها . ونظرا لإعجابي بهذا النظام بشكل قوي، فقد قمنا على الفور بإرسال مهندسينا إلى هناك واستفادوا من طريقة الفرنسيين اللطيفة واكتسبوا منهم الخبرة . و نحن الآن نستخدم هذه الطريقة بشكل واسع، أقول :" هذا نظام فعال للغاية، ويمكن إدخاله وتطبيقه بسهولة . بإمكانك رؤية كل هذا إذا وافقت على دعوة المتخصصين والخبراء لديك ألينا. ويمكنك كذلك الاطلاع على كتب في مجال المحاسبة للتأكد من كيفية تطبيق هذا النظام على أرض الواقع ومعرفة ما مدى ملائمة هذا النظام لكم. وإذا ما كان مناسبا ستقوم بتطبيقه وإن لم يكن مناسبا فكأن شيئا لم يكن . ولكنى أتعجب، إذا ما كان هذا النظام مناسباً لنا، فكيف لا يكون مناسب للعرب إذن؟ لا يمكنني أن أتجرأ على نصيحتك بما لا يعود عليكم بالنفع . فإنني من أنصار هذا الفكر، فهو ليس من اختراعي . بل إن خطط التعاون وإنشاء المزارع السوفيتية هي من ابتكار لينين وقد أثبتت نجاحها بالفعل. حيث تم خلق جو من التعاون بين الفلاحين على أساس

حكيم مع اختيار الكوادر الجيدة . وعلى قدر ما لدينا من مزارع حكومية خاسرة ومنهوبة، بقدر ما لدينا مزارع جماعية تالفة ومبددة ! كم من إهدار تم نتيجة لسياسة غير حكيمة من جراء العمل التعاوني،غير أن هذه مسألة أخرى تعود لتحليل الأخطاء والعيوب التي تم ارتكابها في نظام التعاونيات ولا شأن لكم به . أنتم الآن تختارون أفضل ما توصل إليه الشعب السوفيتي في إدارة خطة التعاونيات التي وضعها «لينين» لاحظت أنه بدأ ينصت لي باهتمام أكثر ويطرح المزيد من الأسئلة .

وصلنا إلى مقر رئاستي، وافترقنا وقال قبل الانصراف إنه سيأتي إلى في وقت ما لكي نذهب إلى هناك . «سيكون هناك قيادة الدولة المصرية ونريد إجراء مباحثات معكم»، «تفضل، سأتناول طعام الغذاء وسأكون في انتظارك» .

لابد من الإشارة إلى أن زيارتي لمصر كانت جيدة، لأن المصريين لا يشربون الكحوليات لأنهم مسلمون ودينهم يحظر عليهم شرب الخمور، وأنا أعلم بذلك . ولكن لا يلتزم جميع المصريين بوصايا رسولهم . فالمصريون يتناولون عصائر الفاكهة بشكل أساسي في احتفالاتهم ومآدب الغذاء بمنازلهم. لديهم أنواع كثيرة من العصائر المتنوعة الجيدة التي تروي الظمأ. فهي المنقذ الوحيد من حرارة وقيظ الجو لديهم . وهنا أستطيع أن أوجه كلمة شكر وامتنان لرسولهم لأنه حذر من تناول المشروبات الكحولية.

تناولت طعام الغذاء في الوقت المحدد، وأنا لدي نظام معقد اعتدتُ عليه لسنوات طويلة : عندما أتناول طعام الغذاء بمفردي، فهذا يستغرق من الوقت ما بين ١٥-٢٠ دقيقة، ولا أتناول المشروبات الكحولية أثناء الغذاء ولذلك فقد انتهيت من الغذاء سريعا واستعددت للقاء .

أخبروني بأن الرئيس قد وصل، خرجتُ ووصل معه عامر، كنتُ اشعر بالراحة . لأن المباحثات مع الرئيس وعامر دائما ما كانت جيدة . قال لي الرئيس : " أنا و عامر شخص واحد، أي ما ستقوله لي يمكنك أن تقوله لعامر كذلك.

نحـن أصدقاء مقربـين ". وقد رأيتُ ذلك بالفعل . فقـد كانوا أصدقاء مقربين، كانـوا يعيشـون بالقـرب من بعـض، حتـى إن عائلاتهـم كانوا يعيشـون وكأنهم أسرة واحدة . ولهذا فقد كنتُ سعيدًا أن صديقين مثل هؤلاء يعتبروا شـخصيات بارزة في العمل الجديد لإعادة بناء وهيكلة السياسـة والاقتصاد المصري .

ركبنا داخل السـيارة في طريقنا إلى اسـتراحة عبد الناصـر، وفي الطريق ابتسـم لي عبد الناصر وقال لي : «هل تعرف أيهـا الرفيق العجوز؟، لقد فكرتُ في حديثنـا سـويا وأبلغت عامر به وتبادلنـا الرأي ولابد أن أقـول لك أنك قدمت لنـا اقتراحا مغريـا جدا . وأرى أنه سـيعود بالنفـع علينا . فإذا مـا كان مجديا بالنسـبة لكم فمن الطبع أن يكون مجديا بالنسـبة لنا أيضا «. وهنا تدخل عامـر في الحـوار قائلا : « ما قالـه لي الرئيس هـو أمر مقبول بالنسـبة لنا، وأرى أنـه من الضروري من خلال تلك الطريقـة العمل على تنظيم الزراعة . فهذه هي الطريقـة الوحيدة المتقدمـة» . قلتُ : «إذا ما رأيت أنهـا طريقة متقدمة بالفعل وستعود بالنفع عليكم، فهذا سيكون من دواعي سروري . وسأشعر بالرضاء المعنوي لأنني استطعت تعويض نفقات زيارتي لكم من خلال إقناعكم بهذه الفكـرة الجيدة . فهذه مسـألة تاريخية . عليكم الآن بإعـادة بناء الفلاحين الذيـن يمتلكـون الأراضي ويزرعـون بالطريقـة البدائية . ودعـم تلك المزارع وتوحيدهـا يعـني إدارة نظام التعاونيـات . وأعلم أن الأمر يحتـاج لذلك النظام. وعندما تقيمون مزارع حكومية في الأراضي الجديدة سـتصبح نموذجًا جيدًا وهكذا ستصل إلى مرحلة إعادة بناء المزارع .

ولكني لا أطرح هذا الموضوع الآن لأنه خاص بالتعاونيات ويصحبه الكثير من المشاكل. بالطبع ستواجهكم الكثير من المشاكل بصورة أكبر من تلك التي واجهتنا عند تطبيق هذا النظام. ولهذا ليس من الحكمة الآن إقرار نظام المعالجة في الأراضي الجديدة التي ستحصلون عليها وتكرار ما تراكم لدينا منذ وقت طويل. فأنتم تعاقبون أنفسكم وتحرمونها فرصة امتلاك احتياطي كبير من رأس المال الذي يمكن توزيعه لصالح الدولة كلها سواء في مجال الصناعة، الزراعة. سيصبح لديكم بنك للإقراض».

كنتُ سعيدًا لرؤيتهم مدى صواب وصحة توصياتي وقالوا إنهم سيفكرون فيها ويعملون مثلنا. لا أتذكر الآن تحديدا تلك الموضوعات التي طرحت للنقاش في هذا الاجتماع لدى الرئيس مع القيادة الرئيسية بالإسكندرية. واذكر أن عبد الناصر قد بدأ الحديث عن ذلك الحوار الذي أجريته معه ومع عامر واخذ يبرهن على مدى صواب تلك الفكرة وأنها ستقدم مساعدة اقتصادية كبيرة لمصر في حال تطبيقها، والأهم من ذلك أنها ستفتح الباب أمام الإدارة الصحيحة لتنمية وتطوير القطاع الزراعي. وبذلك ستحصل مصر على إمكانية تنظيم تصنيع وإنتاج السلع والمنتجات الغذائية على أعلى مستوى باستخدام الوسائل التقنية الحديثة. فلديهم الأسمدة المعدنية وبمقدورهم إنشاء المصانع الخاصة بإنتاج تلك الأسمدة من خلال إدارة اقتصاد على أعلى مستوى.

أرى أن هذا لا يعد تكرارًا لكلماتي، التي اثبت من خلالها صحة هذا الاتجاه في استغلال الأراضي الجديدة. لقد شعرت من خلال حديث عبد الناصر بمدى قناعته بأن هذه هي الطريقة الوحيدة المتقدمة؛ ولذلك لابد من استخدامها وتطبيقها في تلك اللحظة التي أجرينا فيها المباحثات واللقاءات، لأن بناء السد العالي يستغرق عدة سنوات. كما أن إجراء الأعمال التمهيدية لاستصلاح التربة وأعمال الري يستغرق هو الآخر الكثير من السنوات.

وأخذوا يتناقشون حول ذلك الشخص الذي سيتم إرساله على رأس اللجنة أو الوفد الذي سيتم إرساله إلى الاتحاد السوفيتي او بالأدق إلى أوزباكستان

لدراسة تجربة وخبرة الأوزبيك ونقلها إلى الأراضي الجديدة التي ستظهر بعد بناء السد العالي .

ووقع الاختيار على رئيس الوزراء، الذي سيترأس هذا الوفد، ولكني لا أتذكر اسمه الآن . ولكنه شخصية جيدة قد ترك انطباعا جيدا ويُعد كذلك الصديق المقرب لدى الرئيس عبد الناصر، فهو شخصية حكيمة وتضمن الوفد أفراد آخرين ولكني لا أتذكرهم الآن . وسبب اختيار رئيس الوزراء لهذه المهمة لأنه شخصية موثوق فيها ويُعتمد عليه، ولم تكن تلك الأسباب الوحيدة وراء اختياره، بل الأهم أنه كان قادرًا على اتخاذ القرارات . والمقصود هنا بمسألة اتخاذ القرارات هو اتخاذ قرار تمهيدي ؛ لأن الحكومة هي من تتخذ القرار النهائي. وكان من الضروري وأن يتضمن هذا الوفد مهندسين زراعيين، خبراء ماليين، محاسبين لدراسة الجانب الاقتصادي لتلك المزارع .

وعلى أية حال، فقد كان من الضروري كذلك تقدير كافة الظروف بحيث لا يتم اتخاذ القرار بشكل بديهي وإنما لابد وأن يكون قرارًا مدروسًا على أساس تقييم اقتصادي وفني مدروس بشكل جيد. وقد انتهت مناقشة الموضوع عند هذا الحد .

كنتُ قد اعتدتُ على سماع أحاديثهم ومناقشاتهم الجدلية، ولكني لم أسمع أي شيء من جانب باقي المصريين المشاركين في هذا الاجتماع، الأمر الذي يثير حالة من الريبة والشك . أعتقد أن يكون لدى أحدهم شكوك تساوره من الداخل، ولكنه في النهاية لم يعبر عنها . ولماذا هذا الاعتقاد ؟ لأن هذا يُعد تحطيم لإرادة مصر . فقد تراكم لديها خبرات في مجال الزراعة على مدار آلاف السنوات ومن ثم لابد من الوضع في الاعتبار تلك الآمال التي يعقدها الشعب المصري على بناء السد العالي والأراضي الصالحة للزراعة التي سيخلقها هذا السد، فهذا يعد مصدر من مصادر المعيشة بالإضافة إلى ذلك فقد قاموا بأنفسهم بعمل الدعاية اللازمة لهذا المشروع ؛ ولذلك فقد تم إنشاء وزارة خاصة للاهتمام بكل ما يتعلق بهذا المشروع . وشارك عدد كبير من الأفراد النشطاء في وضع

الخطط الخاصة بالمشروع، وهؤلاء الأفراد من المهندسين المعماريين، مهندسي الزراعة، رجال الاقتصاد وغيرهم ممن أسهموا في وضع دراسة هذا المشروع. وبالتالي فلم يكن الأمر سهلا بتلك الطريقة للتحول إلى ١٨٠درجة من التوزيع الفردي للأراضي الزراعية إلى فكرة التعميم.ولكنه لا يعتبر تعميما لأن تلك الأراضي هي أراضي حكومية وتابعة للدولة ولكنها أصبحت تقف على طريق إنشاء مشروعات حكومية كبيرة للإنتاج الزراعي على مستوى المعدات والماكينات. وهنا لن يعمل أصحاب الأراضي، بل العمال المأجورون وهذا يعد تحول كبير. لأنه سمح إلى حد كبير بإمكانية فهم النظام المعمول به في الاتحاد السوفيتي. ولكنني أعتقد انه لم يكن جميع الحاضرين بالقيادة على استعداد لاتخاذ تلك الخطوة. ومن هنا يأتي مشروعية تلك الشكوك وكان لابد من الانتظار لرؤية كيفية التصرف حيالها. وهنا كان لابد من إظهار التفهم والصبر وأن نوضح للشعب العائد الاقتصادي، وقد قدمت لهم ذلك العائد الاقتصادي في البداية. غير أنه قد استتبع وراءه تحطيم سياسي في إدارة الاقتصاد. وقد انتهى الحديث عند هذا الحد. وبعد تقاعدي على المعاش علمت من الصحف أن هذا الوفد قد ذهب بالفعل إلى الاتحاد السوفيتي برئاسة رئيس الحكومة المصرية. وقد سعدتُ كثيرا لرؤية نصيحتي وهي تتحقق على أرض الواقع حتى بعد بلوغي سن المعاش. وهذا يدل على أن عبد الناصر قد اقتنع بصحة وأهمية نصيحتي وجدوى إدارة مثل هذا الاقتصاد.

لا أستطيع الآن الحديث عن كيفية تطور المجال الزراعي بمصر بعد بناء السد العالي وظهور أراضٍ جديدة صالحة للزراعة. بل ومن الصعب مجرد التصور لحجم ذلك التطور من خلال ما يصل إلينا عبر الصحف. وكل ما أستطيع تأكيده هو أنه نتيجة لبناء سد أسوان والانتهاء منه، سيصبح لدى العرب إمكانية لزيادة نسبة الأراضي الجديدة إلى الثلث هذا إلى جانب الأراضي القديمة. ولكني لا أعلم الآن ما هي الآلية التي سيعتمدون عليها في استصلاح تلك الأراضي. ولكنهم إذا ما أعادوا النظر فيه، فإنني سأشعر بمزيد من الحسرة والأسف لأن هذا سيكون بمثابة خطوة إلى الوراء ليس فقط على

صعيد النظام الاقتصادي، وإنما سيحصلون على أجور قليلة وهذا سيكون خطوة إلى الوراء على الصعيد السياسي لأنه سيتم توسيع القطاع الخاص وفقًا لإدارة الأراضي الزراعية. وهذا الأمر سيخلف الكثير من المشاكل بالمستقبل عند الانتقال من الأسس الاشتراكية لإدارة المجال الزراعي وليس لدى أدنى شك في ذلك. وقد أشار لينين إلى هذا الطريق. وهو شخص ذو ثقة ليس فقط لدى الاتحاد السوفيتي، وإنما هو شخص سديد الرأي لدى دول وشعوب العالم أجمع.

عندما تم قبول التوصيات التي اقترحتها، كنتُ قد تبادلت الرأي حول هذا الموضوع مع أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي والذين انضموا إلى الوفد، وكان من بينهم أندريه اندريفيتش جروميكو وجريتشكو وآخرون لا يحضرني أسماؤهم الآن. فقد تبادلنا النصائح مع الجميع وتولدت لدينا فكرة تفيد بأنه الآن هو الوقت المناسب والجيد لإنشاء تلك المزارع على مساحة عدد من الهكتارات وتزويدها بالتقنية الحديثة. وضرورة إعطاء الخبرة الفنية والزراعية في هذا المجال، لكي تصبح تلك المزارع نموذجا يحتذي به في ظل الظروف التي تمر بها مصر. ولا تسعفني الذاكرة الآن حول عدد تلك الهكتارات التي استخدمت لإنشاء المزارع، غير أن هذا الاقتراح يعد بمثابة طاقة الاتحاد السوفيتي، هذا إلى جانب قيامه بمنح المساعدة الاقتصادية التي كان من المفترض وأن يقدمها على حسابه، تلك المساعدة الممثلة في إعطاء عدد من الجرارات، المعدات والأجهزة الزراعية الخاصة بمعالجة وتمهيد التربة وجني المحاصيل.

قمنا بوضع تلك الاقتراحات وإرسالها إلى موسكو مع توضيح مدى أهميتها وطلبنا ضرورة طرحها للمناقشة في موسكو، إذا ما أدركوا صحة وجدوى تلك الاقتراحات، سيتم اتخاذ القرار على الفور وإعلانه للقيادة المصرية.

والسؤال الذي أطرحه الآن، هو لماذا جاءت تلك الاقتراحات ؟ ـ لأننا سبق وإن قمنا بتطبيق مثل تلك المزرعة السوفيتية النموذجية لدى الصين، وقمنا بإنشاء مزرعة كبيرة أيضًا لدى الهند على حسابنا الخاص. وقد لعبت المزرعة

السوفيتية النموذجية دورًا مهماً في الهند في عملية الدعاية والترويج للمزرعة السوفيتية إلى جانب الترويج لمعداتنا و وأدواتنا الفنية في الإنتاج الزراعي والمنظومة الزراعية السوفيتية. وقامت الهند بعد ذلك بتوسيع تلك المزرعة على حسابهم الخاص وتدريب الكوادر لإدارة الحقل الزراعي بطريقتهم الخاصة وليس وفقا لنظامنا. لا أستطيع القول بأن ذلك كان بمثابة ركيزة اشتراكية في ظل ظروف رأسمالية.

هذا يعد مشروع رأسمالي لأن الموارد الأساسية للإنتاج توجد في أيدي البعض من أصحاب رأس المال والمصارف المالية في أيديهم أيضا. ولكن وعلى أية حال فقد كان هذه التوجه متقدم في المجال الزراعي. حيث كان لابد من مشاهدة طريقة استصلاح الأراضي الزراعية في كل من مصر والهند : فالفلاح يقوم بحرث وفلاحة الأرض بمحراثه الخشبي من أجل زراعة الأرز ويغوص بقدميه في هذا الطين الوحل. فهذا أمر فظيع للغاية، ومثل هذه المشاهد لا يمكن رؤيتها سوى في الصور فقط. ولكننا كنا نعمل بمثل هذه الطريقة قبل الثورة، يمكن مقارنة ذلك مع الجيل القديم من أفرادنا.

جاءنا الرد سريعا بالموافقة، واستطعنا إعلام القيادة المصرية بالرد. وانفرجت أسارير عبد الناصر بعد سماعه هذا الرد ويمكنني القول بأنني رأيت ابتسامته الجذابة على وجهه وتلألأت عيناه من الفرحة، وقد كنا سعداء لإبلاغه بهذا الخبر بأنفسنا. ولكن لا أعلم كيف تطورت الأمور بعد ذلك لأنني كنتُ قد أنهيت العمل بمنصبي ؛ولذلك لم يحالفني الحظ في متابعة ومعرفة سير الأحداث فيما بعد حيث لم تكن الفرص متاحة لدي.